بقلم:

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: محمد طاهر نديم

ISLAM INTERNATIONAL PUBLICATIONS LTD

اسم الكتاب: العرفان الإلهي

الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ الموافق لـ ٢٠٢١م

An Arabic rendering of

'Irfān-e-Ilāhi (Urdu)

(Divine Cognisance)

by

Hazrat Mirza Bashir-ud-Deen Mahmood Ahmad
Khalifatul-Masih II, (may Allah be pleased with him)

Translated from Urdu by: Muhammad Tahir Nadeem

First Published in UK in 2021

© Islam International Publications Ltd.

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Farnham, Surrey
GU9 9PS

For further information please contact:
Phone: +44 1252 891330
Fax: +44 1252821796
www.islamahmadiyya.net

Cover designed by: Anan Odeh

ISBN: 978-1-84880-823-2

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر	أ
العرفان الإلهي	١
ما هو العرفان الإلهي؟	١٢
طريق الحصول على العرفان الإلهي	١٢
رؤيا مبشرة	١٨
التأكيد على الإصغاء جيدًا	١٨
لا يقبل الدعاء بدون اتخاذ وسائل مناسبة له	١٩
قصة الرجل الصالح	٢٠
متى يفيد الدعاء بدون العمل	٢٠
الجهد السليم شرط للنجاح	٢١
ثلاث وسائل للمعرفة الإلهية	٢٢
الطريق الصحيح للجهد السليم	٢٢
اعتراض على الإسلام والردّ عليه	٢٣
أصلان لإحراز النجاح	٢٤
العرفان الإلهي يتعلق بالقلب لا باللسان	٢٥

وسائل المعرفة الإلهية ٢٦
تخلقوا بأخلاق الله ٢٧
وسائل التصبغ بصبغة صفات الله ٢٩
الطريق الأول: العلم بالصفات الإلهية ٢٩
طريق للتصبغ بصبغة صفات الله الحقيقية ٣١
طريق التمييز بين الحسنة والسيئة ٣٢
الطريق للتصبغ بالصفات الإلهية ٣٣
ثلاثة أسباب وراء ارتكاب الإثم ٣٣
علاج أمراض الروح على يد أطباء الجسد ٣٨
طريقة اجتناب الآثام ٣٩
الشرط الأول للفوز بالعرفان الإلهي هو التوبة ٤٠
سبعة أمور تقتضيها التوبة ٤١
أهمية تصفية الحساب السابق والعزم على كسب
الحسنات في المستقبل ٤٥
حقيقة الأفكار والخواطر ٤٧
الخطوة العظيمة لإصلاح الأعمال ٤٩
حكاية لطيفة ٤٩
الطريق الأول لتزكية النفس ٥٠

الطريق الثاني	٥٠
الطريق الثالث للتصبغ بصبغة صفات الله	٥٢
الطريق الرابع	٥٥
الطريق الخامس	٥٦
الطريق السادس	٥٨
نوعان للمحاسبة	٥٩
ثلاثة أنواع فرعية للمحاسبة	٥٩
المحاسبة الأولى أو الابتدائية	٦٠
أربعة أنواع للأعمال الصالحة	٦٤
طريق سهل لإصلاح الأعمال	٦٤
حقيقة الغِيبة	٦٥
كيف يمكن معرفة السيئات	٦٧
الطريق السابع	٦٨
الطريق الثامن	٦٩
الطريق التاسع	٦٩
الطريق العاشر	٧٠
قصة رجل صالح	٧١
لا بد من الصبر على الدعاء	٧٢

الفرق بين العجب وعدم اليأس ٧٥
الطريق الحادي عشر ٧٥
مدارج المعرفة الإلهية ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

هذا الكتاب في الأصل خطاب ألقاه حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد ﵁ الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي ﵇ حول موضوع "العرفان الإلهي" في الجلسة السنوية بقاديان بتاريخ ١٦ آذار/ مارس ١٩١٩م.

لقد تحدث حضرته في بداية خطابه عن اعتلال صحته وعن حبه للجماعة وعن دوافع إسداء الخير والنصح والمواساة، فقال ما يلي:

"مع أنه يخيل إلي الآن وكأنها الساعات الأخيرة من حياتي، إلا أن ما يحزّ في نفسي هو أن جماعتنا لم تصل بعد إلى ما كان المسيح الموعود ﵇ يتمنى أن تصل إليه. لذلك دعوت الله تعالى في تلك الساعة، التي كانت تبدو لي كما لو أنها ساعتي الأخيرة لي، أن يُجيزَ عني هذه المصيبة وأن يهب لجماعتنا ذلك النور وتلك المعرفة اللذين اختص بهما عبادَه الأطهار دومًا. فاستجاب الله تعالى دعائي وأتاح لي هذه الفرصة لتنبيهكم إلى واجباتكم، كما وفقني لأنبهكم إلى الغاية والهدف من خلقكم، وإلى مرامكم الذي كان رسول الله يحاول أن يوصلكم إليه."

قال الخليفة الرابع رحمه الله عن هذا الخطاب:

"كان للخليفة الثاني ﷺ خطاب في هذه الجلسة حول موضوع "العرفان الإلهي". كان حضرته قد ضعف كثيرًا نتيجة المرض الذي ألمّ به، وأقبل لإلقاء الخطاب وهو يعاني صداعًا شديدًا يصعب عليه التكلم جراءه، ولكن الله تعالى قد وهب له قلبًا حسّاسًا للغاية بحيث لم يشأ أن يخيب آمال الضيوف الذين وصلوا إلى هناك بقطع مسافات شاسعة، وبالتالي جاء في تلك الحالة لإلقاء الخطاب. كان الموضوع صعبًا جدًّا وضمّ الحضور قرويين أميين ومثقفين ومتعلمين تعليمًا عاليا جدًّا، كما لم يحضر هنالك الأحمديون فحسب بل توافد عدد كبير من غير الأحمديين بعد سماعهم عن الموهبة الأكاديمية والكفاءة العلمية لهذا الخليفة الشاب، وبعد تأثرهم بما سمعوا عن الجو الروحي غير العادي لمركز الأحمدية.

لقد بدأ حضرته في طرح موضوع العرفان الإلهي بلغة سهلة وبسيطة وسلسلة. فعرّف الموضوع أولا وفصَّل في معاني العرفان الإلهي، وبين الفرق بين مصطلحَي العلم والعرفان، وأخبر بأن الله تعالى عليم وليس بعارف، بل لا يمكن إطلاق كلمة العرفان بخصوص الله تعالى، لأن العرفان لا بد أن يكون عن شيء لا يعلمه الإنسان من قبل، ثم يتحرك بحثا عن الحقيقة من الظاهر إلى الباطن.... باختصار تناول حضرته

الموضوع بزواياه المختلفة، وفصل فيه من جوانب كثيرة، وكشف على الحاضرين حقيقةَ أن الإنسان لا يمكن أن ينال العرفان الإلهي في لمح البصر وبنظرة واحدة من قطب أو غوث أو ولي. ثم بيّن حضرته أن العرفان الإلهي لا يُنال إلا بالسعي الدؤوب والجهد المستمر المصحوب بالدعاء الكثير. (سوانح فضل عمر، ج٢ ص ٢٣٥-٢٣٦)

لقد كان شرف ترجمة هذا السفر العظيم من نصيب الداعية محمد طاهر نديم، كما أسهم في مراجعته وإخراجه عدد من الإخوة الكرام والأساتذة الأفاضل، ونخص بالذكر د. وسام البراقي، وحلمي مرمر، وسامح مصطفى، وخالد عزام، والآنسة أمان الله البراقي، فجزاهم الله أحسن الجزاء.

لقد بذلنا أقصى جهدنا لِتكون الترجمة أقرب إلى النص الأردي، ومع ذلك لا نبرئ أنفسنا من ضعف فيها. وندعو الله تعالى أن يوفقنا لبذل جهد أكبر في الطبعات القادمة لتحقيق مزيد من الدقة.

نسأل الله تعالى أن يوفق القارئ الكريم للاستفادة مما يحويه هذا الكتاب من علوم ومعارف، وأن يجعله سببا لهداية الباحثين عن صراط الله المستقيم، آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

خطاب المصلح الموعود رضي الله عنه

في الجلسة السنوية بقاديان

بتاريخ ١٦ مارس/ آذار ١٩١٩م

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

كان دأبي في السنوات الأخيرة أن أسدي في اليوم الأول من الجلسة السنوية نصائح هامة لإصلاح الجماعة، وألقي في اليوم الثاني كلمة حول بعض القضايا العلمية التي يمكن أن تساعد أفراد الجماعة على إصلاح أعمالهم. ولكنني أردت في هذه السنة – بناء على بعض الأحداث الحاصلة – أن أتناول في اليوم الأول بحثًا علميًّا حول قضية دينية هامة، وأذكر في اليوم الثاني أمورًا متفرقةً أخرى داعيًا أن توافق إرادتي إرادة الله تعالى. سأتكلم معكم اليوم في أمر غاية في الأهمية. ولكن قبل البدء بالموضوع الرئيس، أرى لزامًا إخبارَكم أن صحتي تدهورت كثيرًا في الفترة الأخيرة جراء مرض شديد وطويل، بالإضافة إلى سبب آخر وهو رحلتي إلى لاهور التي اضطررت فيها إلى حوار ديني استمر أيامًا عديدة كما ألقيت فيها خطابين أيضًا، وكل ذلك أثر على صحتي، فلا أزال أشعر بالضعف الشديد، وبالتالي لا أراني قادرًا اليوم على إلقاء الكلمة حتى لساعتين أو ثلاث ساعات على غرار كلماتي في الجلسات السابقة التي كانت تمتدّ لأربع أو خمس ساعات متواصلة. إضافة إلى ذلك، أرى أن صوتي أيضا قد لا يصل إلى الجميع، ولكن سأسعى جاهدًا بتوفيق من الله تعالى لرفع صوتي قدر المستطاع، ومع ذلك فإنْ لم يصل إلى أحدكم فليعُدَّ ذلك من حكمة الله تعالى الذي يُسمع من يشاء ويحرم من يشاء، ولا يسع أحدا معارضة مشيئته ورضاه، بل يجب على الجميع أن يجعل

رضاه تابعًا لرضى الله تعالى. فسأبذل قصارى جهدي لأسلط الضوء – بمشيئة الله – على هذا الموضوع الذي اخترته لكم اليوم.

لقد أطلعتُكم في الجلسات السابقة على البحوث التي قمت بها حول "الذكر الإلهي" و"حقيقة الرؤيا". وأتكلم اليوم عن موضوع هام وضروري لكل إنسان، بحيث لا يسع أحدا أن يرجو النجاة دون معرفته بهذا الموضوع. لقد كانت خطاباتي السابقة حول الفروع والجزئيات، أما خطابي اليوم فهو عن الأصل والكُلّ، ولكن للأسف أقف أمامكم لطرح مثل هذا الموضوع الهام في وضع لا يسمح لي بتناول تفاصيله. حتى إنني أشعر بالصداع الشديد في هذا الوقت أيضا جراء اللقاءات الكثيرة والغبار المنتشر في الجو، ومع أني تناولت الدواء فإذا حرّكتُ رأسي شعرتُ وكأنه يكاد ينفجر من شدة الألم. ولكن مع كل ذلك سأحاول بتوفيق من الله تعالى إيصال هذه الرسالة التي أرى أنها الرسالة الأولى والأخيرة لكل مسلم.

كما تعرفون أنه ألمّ بي في الأيام الأخيرة مرض شديد، وتعرضت جراء الضعف القلبي لنوبات طويلة استمرت أحيانا لمدة ست ساعات متواصلة، وتركتْ هذه الحال في قلبي تأثيرًا خاصًّا أودّ مدفوعًا به ذكر أمر ما خاصٍّ يهمني ويهمكم جميعًا. لقد خطر ببالي في هذا الوقت أن الله تعالى قد منّ علينا كثيرًا إذ بعث فينا المسيح الموعود عليه السلام الذي

أخرجنا من غياهب الظلام وجعلنا على منارة من النور، ولكن مع ذلك ثمة حاجة ماسة إلى بذل السعي الحثيث والجهد الكثير للعمل بذلك التعليم القرآني الذي كان يريد عليه السلام أن يستوعبه الناس ويعملوا بحسبه. فالآن مع أنه يخيل إلي وكأنها الساعات الأخيرة من حياتي، إلا أن ما يحزّ في نفسي هو أن جماعتنا لم تصل بعد إلى ما كان المسيح الموعود عليه السلام يرجو أن تصل إليه. لذلك دعوت الله تعالى في تلك الساعة، التي كانت تبدو لي لو أنها ساعتي الأخيرة، أن يُجيزَ عني هذه المصيبة وأن يهب جماعتَنا ذلك النور وتلك المعرفة اللذين اختص بهما عبادَه الأطهار دومًا. فاستجاب الله تعالى دعائي وأتاح لي هذه الفرصة لتنبيهكم إلى واجباتكم، كما وفقني لأنبهكم إلى الغاية والهدف من خلقكم، وإلى مرامكم الذي كان رسول الله يحاول أن يوصلكم إليه.

لقد بدأت في العام المنصرم في إلقاء بعض الخطابات حول هذا الموضوع الذي سأتناوله اليوم وكانت ترمي إلى الإجابة على تساؤل: كيف يمكن إحراز المعرفة الإلهية أو العرفان الإلهي؟ ولكنني تعرضت لوعكة صحية بعد إلقاء أربع خطب فحسب مما اضطرني إلى الخروج من قاديان لفترة طويلة، وبعد عودتي إليها عاودتني نوبة المرض مما سبب الانقطاع في طرح الموضوع وتأخيره، فلم يكتمل الموضوع في تلك الخطب؛ ولكن لا مانع من سرد هذا الموضوع مجدّدًا حتى ولو

كان قد اكتمل سابقًا، إذ لا يحتاج الموضوع للإعادة إذا بدأ العمل به، ولكن إن لم يبدأ به العمل فهناك حاجة ماسة إلى التذكير به مرة بعد أخرى. فأرى أن أستمر في التذكير بهذا الموضوع حتى يبدأ الناس العمل به كما يجب.

لا أقدر على التكلم طويلا كما قلتُ، ولكنني أرى أنني إذا استطعت تبليغ هذه الرسالة ولو بكلماتٍ وجيزة فسأبرئ ذمتي أمام الله تعالى من أداء هذا الواجب، وأستطيع القول أنني بلغتهم هذه الرسالة، ثم إذا لم يعملوا بها فهذا ذنبهم، ولن يكون هناك تقصير من جانبي. وعليه فسأحاول بتوفيق من الله تعالى أن أفرغ من أداء واجبي اليوم.

العرفان الإلهي قضية تهمّ الجميع ولا يسع أحدًا الاستغناءُ عنها. يشكو كثير من الناس أنهم لا يجدون تلك الحلاوة واللذة التي تنجم عن الإيمان الصحيح، فيقولون: نصلي ونصوم ونحج البيت ونؤدي الزكاة ونتصدق وندعو، مع ذلك لا نرقى إلى درجة نجد فيها حلاوة الإيمان ولذته. فيرجون أن أخبرهم ببعض الطرق المختصرة والناجحة التي يفوزون بواسطتها بالعرفان الإلهي. لا شك أنه أمر هام جدًّا، وتتضح أهميته من أن الإنسان خُلق من أجله. بل الفرق الأساسي بين الإنسان والمخلوقات الأخرى هو قدرته على بلوغ العرفان الإلهي، وتعذُّر ذلك على غيره؛ ولكنه سيتحول حالَ عدم بلوغه إلى أسوأ من البهائم، لأنها لم توهب

تلك القوة فهي معذورة، أما الإنسان فقد أوتي تلك القوة ومع ذلك لم يستفد بها.

يهم العرفان الإلهي كل إنسان، ولا يصبح الإنسان كاملا بدونه. لا شك أن أفراد جماعتنا يلتاعون بغية تولد محبة الله تعالى في قلوبهم، وتجلي ذات الله تعالى في كل ذرة من كيانهم. ولكن مع هذه اللوعة الصادقة لا يتحقق لهم مرادهم ويشكون من عدم الحصول على تلك الأمور. كثيرون منهم يفيقون في الليالي ويبكون ويقضون وقتًا طويلا من نهارهم في السعي للوصول إلى الله تعالى، ومع ذلك لا يتحقق مبتغاهم ولا يلقون حبيبهم رغم بذل كثير من الجهود والمساعي، ولا تفتح عليهم أبواب العرفان الإلهي، بل يظل جدار ما حائلا بينهم وبين محبوبهم.

والسؤال الآن: ما هي الوسائل والطرق الكفيلة برفع هذا الحائل وتحقيق بغيتهم؟

يطرأ اليأس والقنوط على الكثيرين الذين لا يتيسر لهم الوصول إلى الله تعالى حتى بعد بذلهم الجهود وقيامهم بالمجاهدات، ويبلغ بهم اليأس درجة ينكرون عندها وجود الله تعالى بعد أن كانوا يلتاعون لوصال ربهم ويسعون له، ولكن يتغير بهم الحال أخيرًا بحيث ينكرون وجود الله تعالى نهائيا. يقولون: أُخبرنا بإمكانية الوصول إلى الله من خلال العمل بالتعاليم الإسلامية، فلم ندخر وسعًا في العمل بها وسعينا جاهدين دون أن تتيسر

لنا معرفة الله تعالى مما يعني أنه ليس للإله وجود، إذ لو كان موجودًا لتمكنّا من الوصال معه.[1]

باختصار، يتمنى الكثيرون أن ينالوا المعرفة الإلهية فيبيتون لياليهم ساهرين باكين وملتاعين ويقضون نهارهم كالثكلى التي فقدت وحيدها، وكأنهم يتقلبون على الجمر المتّقِد، مع ذلك لا تتيسر لهم معرفة الله تعالى. فيتساءلون بعد فشل جهودهم كلها وعدم تمكنهم من الوصول إلى الله تعالى قائلين: إما أنه لا وجود للإله، أو أنه لو كان موجودًا فلا سبيل للوصول إليه. ولكن كلتا الفكرتين باطلتان. الحقيقة أن هناك طرقًا ووسائل معينة لإحراز شيء من الأشياء، ولا يُنال بدون اتباع تلك الطرق والوسائل. فقبل أن أتناول بالتفصيل تلك الوسائل التي تؤدي بالإنسان إلى نيل معرفة الله تعالى أرى ضروريًا تعريف العرفان الإلهي. يقول الكثيرون إنهم أخفقوا في نيل المعرفة الإلهية، ولكنهم لا يعلمون عن المعرفة الإلهية شيئا. لقد سمعوا من آبائهم هذه الكلمة ولا يعرفون معناها الصحيح لذلك أبدأ بشرح معناها الصحيح.

---

[1] أرسل لي الآن أحد الإخوة وريقة طلب فيها شرح المعرفة الإلهية أو العرفان الإلهي. فليعلم أنه لا يكتمل أي موضوع ما لم يتم التعريف به وبيان ماهيته. فما دمت قد وقفت لشرح موضوع العرفان الإلهي فلا يسعني التقدم فيه ولا إفهامكم إياه ما لم أعرّفه. فليطمئن هذا الأخ وليصبر فسيأتي شرح المعرفة الإلهية تلقائيا خلال عرض الموضوع. منه

العرفان والمعرفة كلمتان عربيتان تنطويان على المعاني المرادفة للعلم بدرجة كبيرة جدًّا. ولكن هناك فرق بينها وبين العلم، ذلك أن العلم يمكن الحصول عليه دون بذل جهد وتدبير، ولكن لا يتأتى العرفان إلا من خلال التدبر وإعمال الفكر. لا شك أن العلم أيضا يستخدم بمعنى العرفان، ولكن يشترط في العرفان ألا يُنال إلا بعد التدبر والتفكير الكثير. أي بينهما نسبة الخاص والعام، فالعلم عام والعرفان خاص، وعليه فيقال في اللغة العربية "عرف العبدُ ربَّه" ولا يقال "عرف اللهُ عبدَه" بل يقال "عَلِم اللهُ عبدَه"، وذلك لأن الله تعالى ليس بحاجة إلى التفكير والتدبر، فلا تستخدم كلمة العرفان عن علم الله تعالى وإنما تستخدم عن علم العباد. فمعنى العرفان هو الحصول على علم ذات الله تعالى بعد التفكر والتدبر حتى يعرف الإنسان ربّه. ومعنى المعرفة أن يتعرف الإنسان على أحد من خلال ميزاته التي يتحلى بها بشكل خاص ويمتاز بها عن غيره. فمثلا لو قيل إن زيدًا عرف بكرًا فمعناه أنه ميّز بكرًا من خلال الصفات التي تفرّد بها عن غيره فعرف أنه بكر. وعليه فالمراد من العرفان الإلهي هو أن يجد الإنسان ذاتًا تتحلى بالصفات التي قرأها عن الله تعالى في الكتاب السماوي أو عَلِم عنها مثل صفة الرحيم والكريم والستار والغفار وغيرها، أي يجد الإنسانُ تلك الذات التي تتحلى بهذه الصفات ويتمكن من مشاهدتها فيها، وإلا فلا يعني العرفان الإلهي أن يعرف الإنسان بأن الله

تعالى هو الرحيم والكريم والرحمن، لأن هذا ما يعرفه جميع المسلمين. ولو كان هذا هو العرفان الإلهي لما احتاج أحد إلى الاستزادة منه، بل كان يكفي له أن يسمَّى عارفا بالله بمجرد علمه بما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي من صفات الله تعالى، ولكنه ليس كذلك. الجميع يؤمنون بأن الله تعالى رب الناس وبأنه الرحيم ويقرّون بأنه الكريم والحفيظ والمهيمن إلا أنهم لا يُدعون بالعارفين بالله. هذا يعني أن الإنسان لا يكون عارفا بالله لمجرد علمه بالصفات الإلهية، إنما العارف من يكسب معرفة الله تعالى، وتعني هذه المعرفة أن يلمس فيه تلك الأمور التي تتميز بها ذاته ولا توجد في غيره، ومثاله: لو سمع أحد وصف صورة زيد وعاداته وصفاته وقامته ولباسه، ثم إذا رأى أحدًا يتحلى بجميع هذه الصفات فيفهم نظرًا إلى صفاته المذكورة أنه زيد، وعندئذ سيقال بأنه عرف زيدًا. كذلك يعني العرفان الإلهي أن يتعرف الإنسان – بعد علمه بالصفات الإلهية – على الذات التي تتحلى بهذه الصفات. فلا يقتصر علم مثل هذا الإنسان أن هناك ذاتًا مُحيِيَةً بل يلقاها ويصل إلى حق اليقين من خلال المشاهدة والتجربة أنه هو المحيي. إذًا معنى العرفان أن يجد الإنسان في أحدٍ الصفات التي علمها وسمع عنها، ويعرفه حق المعرفة أنه هو صاحب الصفات المذكورة. ولكن للأسف لا يعرف الكثيرون ما هو العرفان الإلهي فيرددون ما سمعوا من هنا وهناك فيبكون ويصرخون لينالوا العرفان الإلهي،

ولو سئلوا لما استطاع ٩٩ بالمئة منهم بل ٩٩٩ من الألف منهم إخبارَكم شيئًا مفيدًا؛ فمثلهم كمثل الذي يتخبط في ظلام الليل بحثًا عن شيء ما ولا يدري ما الذي يبحث عنه. ولو وَجدَ في هذه الحالة الشيءَ الذي سمع اسمه فقط ولا يعرف صفاته وميزاته ومكوناته ولا حتى صورته فأنى له أن يعرفه، بل من الممكن أن يرميه ثم يستأنف بحثه عن هذا الشيء المجهول. على سبيل المثال؛ لو قال أحد إنه يريد لقاء زيد، ولكنه لا يعلم شيئًا عن مكان إقامته، ولا ملامح وجهه، ولا صفاته وأخلاقه، ففي هذه الحال قد يمرّ بقربه ولا يتعرف عليه، كذلك من لا يعرفون شيئًا عن العرفان الإلهي فلا يستحقون أن يحصلوا عليه ولا أن يحظوا بلقاء الله تعالى، وفي هذه الحال لو صادفوا مشاهد لصفات الله تعالى فلا يسعهم التعرّف عليه بل سيمرّون ناظرين إليه دون أن يعرفوا شيئًا عنه. ومَثَل هؤلاء الذين يرجون الحصول على العرفان الإلهي دون معرفة حقيقته كمثل شخص قيل عنه إنه سمع على لسان أحد المارة أبياتًا غزلية تحتوي على وصف جميل لمعشوقته وقيل فيها إنها جميلة لدرجة أنْ عشِقَها العالم كله. فلما سمع ذلك هذا الرجل قال إذا كان العالم كله يعشقها فلماذا أتأخر، ولـــمَ لا أكون من عشاقها؟ فأصبح يُدعى من عشاقها وظلّ يقرض شعرًا يصف فيها جمالها وفراقها المؤلم له. كان هذا الشخص معلّمًا في إحدى المدارس، وجاء أحد أصدقائه لزيارته فعلم أنه لا يداوم

منذ فترة، فتوجه إلى بيته وقال لخادمته أنه يريد لقاءه. فقالت: إنه لا يريد لقاء أحد في هذه الأيام لأنه أصيب بصدمة شديدة. فقال لها: أرجو أن تخبريه عني ثم إذا رفض مقابلتي فسأرجع. فلما أخبرتْه عن صديقه هذا سمح له بالدخول، فلما دخل ورآه هزيلاً نحيلاً سأله: ما بك؟ قال: تعرضتُ لصدمة عظيمة. فسأله: هل فارقك أحد أعزائك؟ قال: إن الأقارب والأعزاء يموتون ويفارقون دومًا في هذه الحياة الدنيا. فسأله: فما الذي حل بك إذاً؟ قال: فارقتني حبيبتي الغالية. سأله صديقه: ومن هي؟ وأين كانت؟ وما اسمها؟ ردّ عليه قائلا: لا أعرف اسمها ولا المكان الذي كانت تقطن فيه، ولم أر صورتها وملامح وجهها. سأله صديقه: ما دمت لا تعرف شكلها فكيف أحببتها إذًا؟ قال: بينما كنت جالسًا ذات يوم في المسجد إذ سمعت شخصًا ينشد أبياتًا شعرية تقول إن فلانة عشقها العالم كله، فعشقتها، ثم سمعت أحدًا في يوم من الأيام ينشد شعرًا قال فيه إن أم عمروٍ ركبت حمارها فتوجهت إلى ناحية وبعد ذلك لم تعد هي وما عاد حمارها، فخطر ببالي أنها معشوقتي، وبما أنها لم ترجع بعد من حيث توجهت فلا بد أنها ماتت، وإلا فما السبب في بقائها هناك إلى كل هذه المدة الطويلة؟ فيمكنك أن تفهم الآن وضعي وتقدّر آلامي التي أصابتني بعد هذه الصدمة القاصمة للظهر. فقام صديقه من عنده متأسفا في الظاهر على صدمته، أما في قلبه فكان

يتأسف على عقله. فيوجد في العالم مثل هؤلاء الناس أيضا الذين يرفعون عقيرتهم بالصراخ والعويل قائلين: لا يلقانا الله تعالى، ولكنهم لا يعرفون من هو الله.

ما هو العرفان الإلهي؟

فما معنى العرفان الإلهي؟ يقولون إنه معرفة الله. ولكن ليس المراد منه أن يكون لدى الإنسان علم بصفات الله تعالى، لأنها مذكورة في القرآن الكريم والحديث النبوي. إذ لو كان المراد من العرفان الإلهي هو العلم بصفات الله تعالى فهي معلومة سلفا. أما الذات الإلهية فلم ولن يستطيع أحد أن يدرك كنهها، مما يوضح لنا أن المراد من العرفان الإلهي شيء آخر وهو أن يتعرف الإنسان على الذات التي تتحلى بتلك الصفات الإلهية التي علمها أو سمع عنها، وهذا ما يسمى بالعرفان الإلهي، وله أسماء مختلفة أخرى أيضا.

طريق الحصول على العرفان الإلهي

لنرَ الآن كيف يمكن الحصول على هذا العرفان، وما هي الوسائل المؤدية إليه. فأول ما أودّ قوله هو أن البعض يبذلون قصارى جهودهم دون أن ينالوا العرفان، فأترك ذكرهم وأتكلم عن الذين لا يحاولون مطلقًا، ومع ذلك يرجون أن يلقوا الله تعالى. يتضح لنا بالنظر إلى أعمال هؤلاء أنهم لا يحركون ساكنا من أجل لقاء الله تعالى. ومثلهم كمن

يخطر بباله شخصية أحد عند ذكره عرضًا في أحد المجالس، هكذا حالهم بأنهم إذا سمعوا عن لقاء الله رغبوا أن ينعموا به، ولكن مثل هؤلاء الناس لا يحظون بلقاء الله تعالى أبدًا. نرى أنه لا يمكن الحصول على أصغر الأشياء دون سعي وجهد ناهيك عن العرفان الإلهي الذي هو من أثمن الأشياء وأعظمها قدرًا. يحب الصغار أكل العُلّيق بعد قطفه من الأجمة. يكثر العليق في الغابة وهو شيء يسهل الحصول عليه مجانًا، مع ذلك تنجرح الأيادي وتتمزق الثياب لدى قطفه. فلو كان شيء تافه مثل العليق لا يُنال بدون الجهد والكد فكيف يمكن الحصول على لقاء الله تعالى بدون جهد وتجشم عناء ومشقة؟ إذا كان هناك ما يستحق العناء لأجله في الأرض والسماء فهو الله تعالى، فإذا كانت الأشياء غير ذات القيمة تقتضي جهدًا للحصول عليها، فكيف يمكن الفوز بالله تعالى الذي هو خالق كل شيء بالتنهّد أو التأوّه تحسّرًا مرة أو مرتين. فلم ولن يستطيع مثل هؤلاء الناس الوصول إلى الله تعالى، لأن لقاء الله تعالى يقتضي مجاهدات، وعليه فمَن يبايع آملاً في أنه ما إن يضع يده في يد الخليفة حتى يصل إلى حضرة الله تعالى، فهو مخطئ ولن يلقى أي نجاح. يظن بعض الحمقى أنه قد خلا في العالم مثل هؤلاء الصلحاء الذين إذا نظروا إلى أحد تطهّر من جميع أنواع الشوائب والصدأ الروحاني وصار قطبًا من الأقطاب؛ ولكنه خطأ محض؛ لم ولن يتم الحصول على معرفة

الله تعالى بهذه السهولة. لا يوجد ولا مثال واحد أن أحدًا حظي بالعرفان الإلهي بدون أية تضحية وبذل جهد وتحمل مشقة. إن الأنبياء هم الأعلى درجة بين الناس، أما الأولياء فدونهم درجة، فلا يصح القول مثلاً إن الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله نظر إلى قاطع طريق فتحول قطبًا فجأة، أو أوصل معينَ الدين الجشتي رحمه الله شيخُه إلى المكانة التي وصل إليها بنظرة واحدة فقط، فما إن نظر إليه حتى أحرز معين الدين كل شيء فجأة. فهذا لا نراه صحيحًا لأننا رأينا كيف حظي بلقاء الله تعالى رسولُه الذي ما نال هؤلاء تلك الدرجات الروحانية كلها إلا بواسطته ومن خلال اتّباعهم له. وسيتضح من القرآن الكريم أن الله تعالى قال للنبي ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى: ٨) أي وجدناك صريعَ حبّنا إلى درجة أنك نسيت نفسك فيها، فلما كنت هائمًا في الحب الإلهي حتى فقدت فيها الشعور بنفسك هديناك. فالضال هو الهائم في الحب. والقرآن يشهد أن النبي ﷺ لم يضل ولم يسلك مسلك الغواية، لقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (النجم: ٣)، بل جعله ﷺ أسوة حسنة في كل شيء بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢٢). فلا بد أن نفسّر كلمة "الضال" بمعنى يتطابق مع الآيات الأخرى، وهو أن الله تعالى يقول للنبي ﷺ: كنتَ هائمًا ملتاعًا ومشغوفًا بحبي بحيث إنك لم تكن تشعر أين تسير، وما كنت

تشعر بنفسك وتهتم بها وبجوارحك، بل كان شغلك الشاغل هو البحث عني، وكانت جميع أفكارك ومشاعرك غارقة في بحر حبي. ونحن مستعدون لقبول مثل هذه المعاني لكلمة "الضال" عن رسول الله ﷺ، بل نقول لا بد أن يكون هو ما حدث في الحقيقة، فلما رأى الله تعالى مثل هذا الحب الشديد والشوق والحنين قال: ﴿فَهَدَى﴾. فلاحظوا الآن أنه لو كانت هذه هي حال سيدنا محمد ﷺ الذي كان سيد الأنبياء وجامعًا لظروفهم وأحوالهم أمكنكم بعده قياس بقية الأنبياء عليه، إذ لا يمكن القول بأنه ﷺ قد اضطر إلى بذل الجهد الجهيد من أجل لقاء الله تعالى، أما غيره فقد حظوا به دون أن يحركوا ساكنًا. بل لو قُدّر أن تعطى هذه النعمة لأحد دون بذل الجهد لحظي بها الرسول ﷺ. ولكن إذا ورد عن الرسول الكريم ﷺ أنه لم يحظ بلقاء الله تعالى إلا بعد أن تفانى كليًّا في هذا السبيل، فلا شك أنه يدحض الزعم القائل أن أحدًا من أولياء هذه الأمة نال قوة خارقة يحوّل بها الناس إلى الأقطاب بنظرة واحدة فحسب. فلو لم يحظ سيدنا محمد ﷺ بهذه الدرجة دون بذل الجهد فكيف يمكن أن توهب لغيره. فمن يريد أن ينال نعمة المعرفة الإلهية ولقاء الله فلا بد له من بذل الجهد الجهيد والكدح الشديد، ولا يمكن الحصول على شيء بدونه. أتعجّب من أن الشباب يواصلون جهودهم على مدى ١٦ عامًا لتعلم اللغة الإنجليزية ولكنهم يريدون الفوز بالعرفان الإلهي خلال ليلة

وضحاها! لا شك أن العرفان الإلهي لا يُنال إلا بفضل من الله وتوفيقه، وإلا فلو احتجنا إلى تقدير الوقت وحجم السعي والجهد له –قياسًا على ما تستغرقه الأشياء الدنيوية من وقت وجهد للحصول عليها– لاستغرق ذلك بلايين السنين. ولكن مع ذلك يتمنى الناس أن يحصل لهم ذلك بنظرة واحدة. نقول أي طريق يمكن أن يكون أسهل من طريق الأنبياء والأولياء؟ هذا الذي بواسطته ينال الإنسان العرفان الإلهي خلال شهور أو سنوات قليلة بحسب كفاءة أحد وجهده، فأكثرهم جهدًا يكون أسرعهم نيلا للعرفان الإلهي. فيجب أن تضعوا في الحسبان أنه لا يمكن الحصول على العرفان الإلهي دون بذل جهد. رأينا الكثيرين الذي يودون لقاء الله تعالى، ولكنهم يريدون أن يفوزوا به في لمح البصر. أما أفراد جماعتنا فيختلفون عن المذكورين الذين لا يصبرون حتى على الاستماع لخطاب حول هذا الموضوع، إنما يريدون أن تخرج كلمة من لسان ولي من الأولياء وتحوّلهم فورًا إلى العارفين بالله تعالى، في حين أن هذه النعمة لا تُنال من خلال الاستماع إلى الخطب فحسب، بل من خلال بذل النفس والجهد وبعد التفاني في حب الله تعالى. وعلى ضوء سنة محمد ﷺ وأسوته لا تنال هذه النعمة إلا بعد التفاني وبذل النفس من أجل الفوز بلقاء الله تعالى. فمن أراد منكم الوصول إلى درجة المعرفة الإلهية –ولا أرى أن أحدًا لا يتمنى ذلك، لأن الذي آمن بالمسيح الموعود عليه السلام إنما

آمن به للحصول على العرفان الإلهي- فعليهم أن يستمعوا لما أقول لهم اليوم ويستوعبوه جيدًا ثم يسعوا جاهدين للعمل به.

لا أقول إنكم لم تسمعوا قطّ بما سأخبركم من طرق للحصول على العرفان الإلهي، بل لعلكم سمعتم عن معظمها، إنما أهدف بخطابي هذا أن أضع بين أيديكم تلك الأمور الضرورية للفوز بالعرفان الإلهي -مع ما علمني الله تعالى بهذا الخصوص- بصورة يسهل عليكم استيعابها والعمل بها. لقد وهبني الله تعالى علمًا خاصًّا في هذا الموضوع، ولا يعود الأمر إلى مزية أتحلى بها، أو علم اكتسبتُه، أو جهد بذلته، بل لا دخل في ذلك لكل ما ذُكر، إنما هو محض فضله ورحمته تعالى إذ منّ علي بهذا العلم، وأرى أن المستفيد به سيتمكن سريعًا من إحداث تغيير في نفسه. كنت أرغب منذ مدة أن أطلع أفراد جماعتي على هذا العلم، ولكن بما أنه علم هام جدًّا وله فروع كثيرة يقتضي شرحها وقتًا طويلا، وللأسف ليس لدي وقت كاف ولا تسمح لي صحتي بأن ألقي خطابًا طويلا؛ لذلك سأتناول فرعًا واحدًا فحسب، وإن شاء الله تعالى سـأفصّل في الفروع الأخرى لاحقًا، ولكنني لا أعرف إن كنت سأوفق لذلك أم لا، لأنني رأيت بعض الرؤى المنذرة تتعلق بصحتي كما رآها بعض الإخوة الآخرون أيضا، لذلك أقتصر في هذه المناسبة على شرح فرع واحد من تلك الفروع وأترك الباقي لمشيئة الله تعالى. هذا وقد تلقيت من الله تعالى

بشارات أيضا ولكن لا يمكن الجزم بناء عليها أنني سأوفق لبيان الفروع الأخرى للموضوع، إلا أنني أقول باجتهادي بأنني سأوفق لبيانها إن شاء الله تعالى.

رؤيا مبشرة

ومن بين تلك الرؤى المبشرة رؤيا رأيتني فيها جالسًا في بيت الدعاء أدعو الله تعالى في جلسة التشهد في الصلاة قائلا: اللهم اجعل عاقبتي كعاقبة إبراهيم عليه السلام، ثم أقوم من مقامي بكل حماس مردّدًا الدعاء نفسه، فيُفتح الباب وإذا بالسيد مير محمد إسماعيل يقف حاملا ضوءًا.

يعني اسم "إسماعيل" أن الله تعالى استجاب الدعاء، وعاقبة إبراهيم تعني أن الله تعالى أقام بعد وفاته إسحاق ويعقوب عليهما السلام نائبين له، فهذه بشارة لكم ينبغي أن تفرحوا بها.[1]

التأكيد على الإصغاء جيدًا

والآن أعود إلى صميم الموضوع. لقد قلت إن الحصول على العرفان الإلهي يتطلب جهدًا كبيرًا ولا تنال هذه النعمة بدونه، كما لا تنال بدون العلم الكامل أيضا. فاسمعوا إلى ما سأقول لكم بإصغاء تام، إذ لا يمكن أن يُحفظ شيء بدون الاستماع له جيدًا، ولا يمكن العمل بما لم يُحفظ

[1] وقد حقق الله تعالى هذه الرؤيا وفقا لتفسير حضرته رضي الله عنه؛ إذ أقام من بعده ابنيه خليفة ثالثا وخليفة رابعًا. (المترجم)

جيدًا، لذلك أقول بكل محبة وإخلاص أن يفيق النائم، وينتبه الغافل، ويركز على استيعاب هذا الموضوع أكثر مَن وجد في نفسه أنه ينشغل عنه بأمور أخرى، لأنني سألقي عليكم ما يفيدكم الاستماع له. ولا أسألكم عليه أجرًا إنما أُسمعكم لأؤدي به واجبي ولكي تنتفعوا به. فإن عملتم بما سأقوله لكم، فسترون ما تحصلون عليه وكم ستتمتعون به! ولكن تذكروا! لا أدلكم على أمر سحري بحيث إذا عمل به أحد هذه الليلة فسيصبح عارفًا بالله صباحًا، كلا، بل سبق أن قلتُ لكم إنه لا يمكن نوال العرفان الإلهي بهذه الطرق الخيالية، وإنما يُنال عن طريق فناء النفس. ولكن لو حفظتم ما سأذكره لكم من أمور فستنتفعون بها بحيث لن تكونوا من الذين يشكون أنهم بذلوا قصارى جهودهم ولم يروا أية نتيجة، بل سترون الله تعالى بصفاته المذكورة في القرآن الكريم، إن شاء الله تعالى.

لا يقبل الدعاء بدون اتخاذ وسائل مناسبة له

الأمر الأول الذي أودّ تبيانه هو الوصية الخاصة المتعلقة بالسعي. اعلموا جيدًا أنه لتحقيق أمر من الأمور هناك وسائل وطرق خاصة به بحيث لا يتحقق هذا الأمر بدونها. يقول الناس إن الله تعالى يُنال بواسطة الدعاء. لا شك أن الدعاء شيء عظيم، ولكن لا بد من اتخاذ الوسائل الأخرى معه، إذ لا يستجاب الدعاء بدونها. مثلا لو تزوج أحد وعكف

على الدعاء ليوهب الأولاد من دون أن يقرب زوجته، أيُستجاب دعاؤه؟ كلا! لن يستجاب.

قصة الرجل الصالح

حُكي عن أحد الصلحاء أنه جاءه أحد وطلب منه الدعاء ليرزقه الله تعالى ولدًا ذكرًا. فلما أراد الانصراف سأله الصالح: إلى أين تذهب؟ قال: إلى العمل. قال الرجل الصالح: أنى لدعائي أن يستجاب إذا ذهبت إلى عملك بدلا من الذهاب إلى زوجتك؟ فلا يجدي الدعاء نفعًا ما لم تتخذ الوسائل اللازمة له أيضا. ولا يثمر الدعاء بدون بذل السعي والجهد.

متى يفيد الدعاء بدون العمل

لا ينفع الدعاء إلا إذا كان مصحوبًا بالعمل والسعي. إلا أن هناك صورتين اثنتين يفيد فيهما الدعاء حتى بدون العمل وبذل السعي. إحداهما أن يأمر الله تعالى الإنسان بالدعاء ويمنع من العمل، أي من اتخاذ الأسباب الظاهرية لتحقيقه. كما أُمر المسيح الموعود عليه السلام بالدعاء للحفظ من الطاعون غير أنه مُنع هو وأفراد جماعته من أخذ لقاح للوقاية من الطاعون. (انظر: سفينة نوح، الخزائن الروحانية، ج١٩، ص٢). فمع أن اللقاح كان علاج الطاعون ولا يزال الأمر كذلك، إلا أن الله تعالى منعه من أخذه وأمره بالدعاء فقط، وبفضل الله تعالى كانت إصابة أفراد الجماعة بالطاعون قليلة جدًّا مقارنة مع الذين أخذوا لقاحه.

والصورة الثانية هي أن يطرأ ظرف يستحيل على الإنسان العمل بشيء. مثلا لو سُجن أحد في الغابة ورُبطت يداه وقدماه فلا يستطيع أن يحرك ساكنًا، فيكفيه الدعاء عندئذ. ولكن بدون مثل هذه الموانع لا بد من العمل وبذل السعي إلى جانب الدعاء. فهاتان صورتان فحسب يمكن أن يستجاب الدعاء فيهما بدون السعي والعمل، وإلا فلا.

ثم لا يمكن الفوز بلقاء الله تعالى بالدعاء وبذل الجهد فقط، ولقد رأيت بنفسي البعض الذين يبذلون جهودًا كثيرة ولا يحظون بلقاء الله تعالى. فما دام أحد يدعو الله تعالى ويسعى من أجل لقاء الله تعالى فلماذا يا ترى لا يحظى بلقائه؟ السبب في ذلك هو أنه لا شك يبذل قصارى جهوده، ولكنها ليست في الطريق الصحيح.

الجهد السليم شرط للنجاح

بذل السعي في طريق سليم شرط أساسي لإحراز النجاح. مثلا لا بد للطالب المتعلم الذي يقصد المدرسة أن يشتري الكتب ويدرسها. فلو لم يدرس الكتب وعكف على الدعاء ليل نهار لتحصيل العلم فهل يحقق ذلك؟ كلا! أو إذا ظل طول النهار متعلقًا بالشجرة رأسا على عقب ووخز جسمه بالإبر ثم ظن أنه تحمل مشقة كبيرة، أمِثل هذا ينجح في الامتحان؟ كلا! أو إذا أراد أحد أن يصبح حدّادًا فعكف على الصلاة طوال يومه وقضى ليلَه يردد القول "سبحان الله وبحمده وسبحان الله

العظيم" الذي قال عنه النبي ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ." (البخاري، كتاب التوحيد)، أو قضى يومه في حفر بئر أو تمرغ في التراب في وضح النهار تحت أشعة الشمس الحارقة، فهل سيتعلم الحدادة؟ طبعًا لا. فلا بد من بذل الجهد على وجهٍ صحيحٍ وطريقٍ سليمٍ بالإضافة إلى الدعاء من أجل إحراز نجاح في عمل من الأعمال، ومن لا يتبع هذا الطريق لا ينجح مهما أكثر من الدعاء أو بذل جهودًا وتحمل مشقة كبرى. فبما أنه لا بد من اتباع الوسائل الصحيحة للفوز بالنجاح في أمر من الأمور لذلك أخبركم أولا عن هذه الأمور الثلاثة للحصول على المعرفة الإلهية.

ثلاث وسائل للمعرفة الإلهية

الأولى: أن يواظب الإنسان على الدعاء.

الثانية: أن يبذل قصارى جهوده.

الثالثة: أن يسعى بالسير في الطريق الصحيح.

فإن حفظتم ما أقوله لكم ثم سعيتم سعيكم وفقما أبيّنه لكم، فستحرزون النجاح إن شاء لله تعالى.

الطريق الصحيح للجهد السليم

هناك أمر هام يجب توفره في الطريق الصحيح للجهد، وهو أن يغطي الجهد جميع الجوانب المتعلقة بالنجاح. فلو أراد طالب مثلاً تقديم امتحان

الثانوية العامة فلا بد له أن يتعلم الرياضيات بالإضافة إلى التاريخ والجغرافيا وغيرها من المواد المتعلقة بهذا الامتحان. ولكن من ترك إحدى هذه المواد الضرورية فلا يحرز أي نجاح مهما بذل من جهد وسعيٍ في المواد الأخرى. فلا بد أن يحيط سعيُه جميعَ جوانب المجال الذي يريد إحراز النجاح فيه.

اعتراض على الإسلام والردّ عليه

يتهم البعض الإسلام بضيق الأفق، إذ يقول بأنه لا يوجد على وجه الأرض دين حقّ سواه، في حين كان ينبغي أن يقال: يمكن لتابع أي دين أن يلقى النجاة.

أتعجّب من هؤلاء المعترضين الذين لا يتدبرون قانون القدرة وما يفضي إليه من نتائج. يقولون ما دام قلب الهندوسي والمسيحي والآري يكتنفه حب الله عز وجل ثم يسعى لنيله فلماذا لا يحظى بلقاء الله تعالى؟ أقول لهم إن السبب في ذلك هو نفسه الذي يكمن في عدم تعلم أحد الحدادة بتقلبه على الأرض تحت أشعة الشمس الحارقة، وهو السبب نفسه الذي يكمن في إخفاق أحد في الدراسة بتعلّقه بالشجرة رأسا على عقب. يعلم الجميع أنه ما لم تُبذل المساعي اللازمة لإنجاز عمل من الأعمال، وفي اتجاهها الصحيح لا يمكن إحراز أي نجاح فيه. فما دام هذا هو القانون السائد في الأمور الدنيوية فلماذا لا يكون

ساريًا في الأمور الروحانية؟ فلا يمكن أن تتكلل جهودكم بأي نجاح في الأمور الدينية أيضا ما لم تلتزموا بالشروط اللازمة والمحددة لتلك الأمور.

أصلان لإحراز النجاح

هناك طريقان اثنان لإحراز النجاح في أي أمر من الأمور. أولهما مجموعة من الأصول العامة التي يتبعها الناس لتعلم العلوم والصنائع وغيرها؛ مثلا يداوم الطلبة في المدرسة من أجل الدراسة ثم يدرسون مقررها ويقدمون الامتحان ويلقون النجاح. ثانيهما مجموعة من القواعد الخاصة التي لو حفظها المرء أتقن عملَه وأحسن أداءه، مثلا لمادة "الجبر" صيغ معينة لو حفظها أحد أجاد علم الجبر، وهناك قواعد وضعها التجار وأصحاب الأعمال ومن خلالها يقومون بحساباتهم بأقصى سرعة. إذًا لكل عمل طريقان؛ طريق عام يكفل النجاح وطريق خاص يوصلهم بسهولة أكثر إلى النتيجة المنشودة. وهذان الطريقان ضروريان لكل أمر، ماديًّا كان أم روحانيًا. ولكن يجب أن تتذكروا أن هذه القواعد الخاصة لا تجدي نفعا ما لم تُعرف الأصول العامة. فلو علم أحد بقواعد قراءة اللغة الإنجليزية، أهذا يعني أنه تعلّم الإنجليزية؟ كلا، بل الأصول وضعت لإنجاز العمل بأسهل الطرق وبأقصرها، إلا أنها ليست وحدها كفيلة بالنجاح.

وما سأذكره الآن ليس هو إلا القواعد العامة، أما القواعد الخاصة فهي موضوع مستقل ولن أتعرّض له، ولا حرج إذا لم تُذكر القواعد الخاصة، لأنه مما لا شك فيه أنها تساعد على إنجاز عملِ الساعات في دقائق ومهامِ السنين خلال شهور، ولكن لا يستفاد منها بدون علم القواعد العامة. لذلك يجب تعلّم القواعد العامة أولا ثم إذا بُدئ العمل بها بطريقة سليمة أمكن تعلّم القواعد الخاصة من أجل اختصار الطريق والإسراع للوصول إلى النتيجة المنشودة. فبما أنه موضوع مستقل لذلك لن أتطرق إليه اليوم بل سأتناوله بتوفيق من الله تعالى في وقت آخر، أما اليوم فسيقتصر كلامي على القواعد العامة.

العرفان الإلهي يتعلق بالقلب لا باللسان

يجدر بالذكر هنا أن المعرفة الإلهية ليست بشيء يمكن ذكر حقيقته في كلمات، إذ لو كان الأمر كذلك لذُكّر به الجميع ولُقّنوه وفهِموه أيضا؛ ولكنه ليس كذلك. هل من أحد أكثر حبًّا ومواساة لبني البشر من النبي ﷺ الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٤)؟ كان سيدنا محمد المصطفى ﷺ ناصحًا ومواسيًا للناس حتى قال الله تعالى في حقه: هل ستُهلك نفسك من أجلهم؟! فلو كان بالإمكان بيان حقيقة المعرفة الإلهية بالكلمات لذكرها ﷺ، ولكنه لم يذكرها، مما يعني أن العرفان الإلهي شيء يستحيل ذكره بالكلمات، إنما هو أمر يتعلق

بالقلب. فكما قلت: إن العرفان الإلهي يعني اللقاء بالله تعالى، ولا يمكن ذكر حقيقته بالكلمات. فلو أمكن ذلك لجعل الرسول الكريم ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام الجميع عارفين بالله تعالى. فلن أذكر حقيقة العرفان الإلهي ولا أقدر على ذلك، بل سأكتفي بذكر وسائل الحصول عليه.

يقال إن المرشد لا يطّلع على أحوال تابعه، ولا التابع يعرف حال مرشده. وهذا يعني أن كلا منهما لا يمكنه الاطلاع على الحالة القلبية التي يشعر الآخر بها. فالعرفان الإلهي كفاءة علمية معينة لا يمكن ذكرها بالكلمات، ولا يقدر على ذكرها حتى الذي نَعِم بهذه الحالة وأحرز هذه الكفاءة. إنما يمكن ذكر الوسائل المؤدية إليها، وهي التي سأتناول ذكرها ههنا. أما ما تُحدثه هذه الوسائل من أحوال فلم يستطع أحد ذكرها كما لا يسعني أنا أيضا ذلك. ومثاله أنه يمكن إخبار أحد عن كيفية صنع الحلوى وبيان وصفها، ولكن لا يمكن وصف لذتها ما لم يأكلها أحد بنفسه. كذلك يمكن الإخبار عن الوسائل المؤدية إلى نوال العرفان الإلهي، ولكن لا يمكن وصف الحال التي يشعر بها الإنسان عند نواله، ومن يحصل عليه يتعرف تمامًا على هذه الحال وكيفيتها.

وسائل المعرفة الإلهية

والآن أذكر لكم الوسائل الصحيحة للحصول على العرفان الإلهي. سبق أن أخبرتكم أن العرفان الإلهي يعني التعرف على تلك الذات التي

قرأنا صفاتها في القرآن الكريم. ولنرَ الآن ما هي الوسائل لكسب هذه المعرفة. فاعلموا أنه لو كان المراد بالمعرفة أن يرى الإنسان اللهَ تعالى أمامه رأي العين ويلمسه بأعضائه المادية، فلا بد أن يتحلى الإنسان أيضا بتلك الصفات التي يتصف بها الله تعالى، لأننا نرى أن أيادينا المادية لا تلمس إلا الأشياء المادية، وكلما قلّت المادة في الأشياء صرنا أقل شعورًا بها، والسبب في ذلك أنه لا يمكن أن تنشأ علاقة بين شيئين ما لم تكن المشاركة بينهما قائمة. مثلا لا مشاركة بين الجاموس والعلوم. فلن يفقه الجاموس شيئا لو ذكرت الفلسفة أمامه، كذلك الببغاء يشارك الإنسان التكلم ولكنه لا يشاركه في العقل، لذلك فإنه يقلِّد صوت الإنسان دون أن يفهم شيئا.

تخلّقوا بأخلاق اللّه

لا بد لإحراز العرفان الإلهي من التخلّق بأخلاق الله، ولا يُنال ما لم يَخلق الإنسانُ بينه وبين ربه نوعًا من الانسجام أو المشاركة التي تعكس في نفسه صفات الله تعالى. لا أقول إننا لا نستطيع أن نحصل على العرفان الإلهي ما لم تصبح ذاتنا كذات الله تعالى، إنما أقول ما قاله النبي ﷺ أنْ تخلّقوا بأخلاق الله. إنما قال النبي ﷺ ذلك حتى تنشأ بينكم وبين ربكم مناسبة، وإذا حصل ذلك فسترون الله تعالى. لم يقل ﷺ أن تجعلوا من أنفسكم ذواتًا مماثلة لذات الله تعالى، إنما قال ﷺ أن نجعل صفاتنا

وأخلاقنا كصفات الله تعالى وأخلاقه. والسبب في ذلك أنه ليس من أحد يدرك كنه الذات الإلهية، فما لم يدركها أحد فلا يسعه المماثلة معه، لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى الله تعالى كالأشياء العادية، ولكنه يستطيع أن يتخلق بأخلاقه؛ والمراد من أخلاق الله تعالى صفاته.

وبهذه المناسبة تذكرت رؤيا أحد الإخوة الذي قال: رأيتُك تلقي كلمة في الجلسة السنوية حول الأسماء الإلهية، لذلك أرجو منك أن تلقي خطابًا حول هذا الموضوع. وعندما سمعت هذه الرؤيا كان هناك موضوعٌ آخر قد تعيّن للجلسة. ولكنني تذكرت هذه الرؤيا عند ذكر كلمة صفات الله تعالى الآن.

على أية حال، لا بد من التخلق بأخلاق الله والتصبغ بصفاته من أجل الحصول على المعرفة الإلهية، فما لم يكن الإنسان ربًّا ورحمانًا ورحيمًا ومهيمنًا وستّارًا وغفّارًا نوعًا ما، لا يستطيع أن يكون مظهرًا لله تعالى. وبقدر ما يتصبغ الإنسان بصفاته ﷻ تتجلى عليه هذه الصفات أكثر فأكثر فيتمتع بمشاهدتها، ولكن الإنسان الكامل والعارف بالله هو من يتصبغ بجميع الصفات الإلهية التي تتعلق بالعباد، وهكذا تنشأ علاقةٌ بين العبد وربّه وبالتالي يسهل له اللقاء بالله تعالى.

والسؤال الآن كيف يمكن التصبغ بالصفات الإلهية. يقول الشاعر:

دردِ سر کے واسطے صندل کو کہتے ہیں مفید اس کا گھسنا اور لگانا دردِ سر یہ بھی تو ہے

أي: يُعَدُّ وضع طبق من مسحوق خشب "الصندل" على الرأس مفيدًا لعلاج الصداع ولكن سحق خشب الصندل وطريقة استخدامه بحدّ ذاته يسبب صداعًا.

وسائل التصبغ بصبغة صفات الله

رب قائل يقول: علمنا بأن التحلي بالصفات الإلهية يؤدي إلى الحصول على العرفان الإلهي. ولكن ينبغي أن نعرف كيف يمكن التصبغ بها. يحاول الكثيرون أن يرحموا الآخرين وألا يمارسوا القسوة ضد أحد من الناس ولكن قسوة قلوبهم لا تسمح لهم بذلك. كذلك يرغب الكثيرون أن يستروا عيوب الآخرين ولكنهم يفقدون السيطرة على أنفسهم فتخرج مِن أفواههم كلمات تهتك أسرار الآخرين. كذلك يريد الكثيرون أن يتحلوا بصفة العفو والصفح إلا أنهم يخفقون في ذلك. فلما كان الناس رغم سعيهم وبذل مجهود كبير لا يستطيعون التحلي بهذه الصفات المذكورة، فبأية صبغة يجب أن تتصبّغ أعمال الإنسان حتى تعكس فيها الصفات الإلهية؟

الطريق الأول: العلم بالصفات الإلهية

فالأمر الأول الذي لا بد منه هو علم الإنسان بالصفات الإلهية. لا تظنوا أنه أمر عادي، ومن ذا الذي لا يعلمه؟ كلا بل هناك كثير من الناس لا يستحضرون صفات الله تعالى، وإذا استحضروها فلا يعرفون معانيها.

على سبيل المثال اعتاد المسلمون حفظ أسماء الله تعالى ولكنهم لا يعرفون معانيها. ولا يمكن أن يحدث أي تأثير في الإنسان ولا أي تغيير في أعماله لمجرد ترديد الألفاظ المجردة ما لم يعرف معانيها. فأولا لا يحفظ الكثيرون أسماء الله تعالى، أي: صفاته، أما الذين يحفظونها فإنهم لا يعرفون معانيها، وعند ذكر هذه الصفات لا ينشأ في أذهانهم أي تصور لها. فلا تفيد الكلمات المجردة نفعًا ما لم تؤدِّ إلى خلق تصور لمعناها. مثلا الشاة هي المعز، فلو قيل لأحد إن الشاة هي المعز، ولم يكن يعرف الحيوانَ الذي تُطلق عليه تسمية المعز فلن يفهم شيئًا. فإن الكلمات التي لا تخلق في ذهن الإنسان تصورًا واضحًا عن محتواها فإن حفظها وعدمه سواء. وعليه: فلا يقتصر الأمر على فهم المعاني لهذه الكلمات بل لا بد من أن ينطبع في الذهن تصور لمدلولها. ولكن معظم الناس لا يعرفون شيئا عن هذا التصور. مثلا لو سئل أحد عن معاني "الرب" لقال هو الخالق والمربي، ولكن لن ينشأ أي تصور لمعنى الرب في ذهنه وبالتالي لن تترسخ معانيه الحقيقية في قلبه. فلا يعني العلم بالصفات الإلهية أن يحفظ أحد أسماء الله تعالى أو يعرف معانيها، بل يجب أن يعلم المرء الصفات الإلهية ويسبر أغوار معانيها، وكلما نطق بصفة من هذه الصفات أو سمع بها شعر بوقعها الخاص في قلبه. فمثلا "الرحمن" هو من ينعم على الإنسان من دون أن يكون له عمل يستحق ذلك. فإن جرت على لسان أحد هذه الكلمة

فينبغي ألا يخطر بباله معناه فحسب بأن الله تعالى ينعم على الإنسان دون أن يكون له عمل يستحق ذلك، بل يجب أن تمرّ أمام أنظاره كالبرق جميع المنن التي أغدقها الله تعالى عليه من دون أي يكون له أي عمل يستحقها، وتتمثل له هذه الصفة بشكل صوري. فعلى من لم تحصل له هذه الحال أن يستحضر هذه التفاصيل في قلبه لتتولد لديه تلك الحال المطلوبة بشكل كامل. ومن الناس من إذا سألته عن معاني صفة من صفات الله تعالى ذكرها لك، ولكن إن سألته عما ترمي إليه تلك المعاني، سكت. وحاله تشبه حال شخص قرأ البيت التالي باللغة الأردية:

ہم ہوئے تم ہوئے کہ میر ہوئے اس کی زلفوں کے سب اسیر ہوئے

وفَهِم معناه: أنا وأنت والسيد "مير" وغيره، قد رُبطنا جميعًا بسلسلة من شعرها وأُرسلنا إلى السجن.[1]

طريق للتصبغ بصبغة صفات الله الحقيقية

فلا يكفي العلم بمعاني الكلمات ما لم ترافق هذه الكلمات الحال والكيفية المرتبطة بها. فلا بد أن يعرف الإنسان معاني جميع صفاته تعالى ثم يدرسها بالتفصيل حتى تترسخ في قلبه الكيفية المتعلقة بكل صفة من هذه الصفات. فمثلا يجب أن يعرف أن الرب هو الخالق الذي يتدرج

[1] أما المعنى الصحيح لهذا البيت فهو: لقد أسرَ الجميعَ شعرُها الجميل سواء أنا أو أنت أو السيد "مير" وغيره. (المترجم)

بالإنسان من مرحلة إلى مرحلة أعلى وأرقى منها، ثم يجب أن يعرف معاني الرقي وتفاصيله والطرق التي يُحقق بها هذا الرقي، وما هي مظاهره، ويظلّ منشغلا في تدبر تفاصيله حتى تتولد في قلبه الكيفية الكاملة لهذه الصفة. فعلى من يريد أن يتصبغ بصفات الله تعالى أن يعرف أولا المراد من هذه الصفات، ثم يتمكن من الارتقاء إلى حيازة العلم الحقيقي بها. واعلموا أن من حاز علما حقيقيا بالصفات الإلهية عَلِم بالحسنات والسيئات تلقائيا، لأن التحلي بهذه الصفات والعمل بحسبها هو الحسنة بعينها، والتخلي عنها والعمل بخلافها سيئة ومعصية. لقد علّمنا القرآن الكريم من حيث المبدأ أن نجعل أعمالنا كلها خاضعة لصفات الله تعالى وأن نتجنب أمورًا تخالفها، أما التفاصيل الأخرى للحسنات والسيئات فهي شرح لهذا المجمل. لا يعرف الكثير من الناس ما الحسنة وما السيئة؟ لذلك فكثيرا ما يحسبون السيئة حسنةً، والحسنةَ سيئةً، والسبب عدم معرفتهم بما تقتضيه الصفات الإلهية.

طريق التمييز بين الحسنة والسيئة

وهناك من يعلمون بالحسنة والسيئة، ومع علمهم بالأوامر والنواهي لا يستطيعون العمل بحسبها، فما علاجهم يا ترى؟ وماذا ينبغي عليهم القيام به حتى يوفقوا –وفق رغبتهم– للعمل بأوامر الله تعالى وتجنب نواهيه لكي تتم تزكية نفوسهم فينالوا العرفان الإلهي؟ أما الذين لا يحاولون الحصول

على المعرفة الإلهية فإنهم لا يعلمون شيئا عن الصفات الإلهية، وبالتالي فيجب أن يُعلَّموا أولا أمورًا عن الله تعالى وصفاته. ولكن بما أن المخاطبين بموضوعنا هذا اليوم هم الذين يؤمنون بالله تعالى ويتبعون الإسلام ويريدون قرب الله ومعرفته، لذلك سيتم التركيز مبدئيا عليهم. كما سندرس العراقيل التي تحول دون سلوكهم إلى الله، وكيف يمكن إزالتها.

طريق للتصبغ بالصفات الإلهية

الطريق الوحيد للحصول على العرفان الإلهي هو التخلق بأخلاق الله تعالى والتصبّغ بصبغته. ولا يمكن أن يتحقق ذلك ما لم يصفُ قلب المرء من السيئات. فإن العائق الأول دون الفوز بالعرفان الإلهي إنما هو ارتكاب الإثم والسيئات.

ثلاثة أسباب وراء ارتكاب الإثم

هناك ثلاثة أسباب لارتكاب الإثم وهي:

السبب الأول: بعض الناس يجهلون السيئات فيرتكبونها ويدأبون عليها وهم لا يعلمون. لا شك أن الجميع يعلمون عن السيئات الكبيرة والمعروفة ويدركون أن السرقة والزنا والكذب وغيرها آثام يجب اجتنابها. لا يمكن أن يعدّ أي بيت محفوظًا ما لم يكن متكاملا من جميع النواحي، فمثلا لو بنى أحد الجدران الأربعة للبيت ولم يسقّفه فلا يُحفَظ البيت من المطر والشمس، فلا بدّ أن يسقفه ليكون محفوظًا من الأضرار، كما لا بد أن

تكون له نوافذ وشبابيك. كذلك لا يمكن لأحد أن يتطهر تماما ما لم يأخذ بعين الاعتبار جميع جوانب السيئات والآثام، ولا سيما المخفية والدقيقة منها التي لا يعلم بها الإنسان دون القيام بدراستها دراسة دقيقة جدًّا وبعد بذل جهود مضنية. لكل عمل أساسيات كفيلة بالمحافظة عليه وكماليات أخرى تتعلق بتجميله وتزيينه. إن فقدان الأمور التجميلية في شيء من الأشياء لا يسبب حرجًا كثيرًا، ولكن فقدان الأمور الأساسية يؤدي إلى النقص فيه وعدم اكتماله. مثلا لو بنى أحد بيتًا ولم يركّب فيه الأبواب والنوافذ والشبابيك وغيرها فلا يعدّ كاملاً، فلو ركّب فيه كلّ شيء غير أنه لم يبلّطه ولم يدهن جدرانه فلن يكون جميلاً ولكنه لا يسبب أي نقص في كونه بيتا محفوظًا. وعليه فلو سعى الجاهل بالسيئات جاهدًا ليل نهار للتخلص من ارتكابها، فلن ينجح لأنه لن يستطيع بهذه الطريقة الانتباه إلى بعض الأمور الهامة التي لا بد من أخذها بعين الاعتبار، كما أنه لن يستطيع التنكب عن الأمور الضرورية لتجنبها. فمحاولة أحد في مثل هذا الوضع ليصبح كاملاً خطأ محض لأنه لن يحرز أي نجاح ما لم يراعِ جميع الجوانب والنواحي، إذ لو غفل أحد عن بعض السيئات فلا تتكلل جهوده بالنجاح الكامل. فالأمر الأول والهام هو علم الإنسان بالسيئات.

السبب الثاني لارتكاب الإثم هو أن الإنسان يعلم بالسيئات، ولكنه ينجر مع اندفاع النفس وينسى كل شيء فيقع في ارتكاب المعصية.

مثلا: قد يعلم أحدٌ أنه يجب عليه اجتناب قول الزور ولكنه مع ذلك يكذب عند الضرورة ثم يتأسف عليه. كذلك قد يعرف أحد أن السب والشتم عمل سيئ إلا أنه يرتكبه ثم يبكي على حاله.

كانت العرقلة الأولى في تجنب السيئات هي جهل المرء بها، ولكن العرقلة الثانية هي أن الإنسان مع علمه بالسيئات يجد في نفسه اندفاعًا قويًا بحيث ينسى في لحظة من اللحظات كل ما يعلمه ويرتكب السيئة ثم يقلب كفّيه حسرة على فعلته.

السبب الثالث وراء ارتكاب الإثم هو أن الإنسان يعلم أن فعلا من الأفعال سيئةٌ، ويتذكر عند العمل به أنه سيئة، ومع ذلك يرتكبها. مثلا؛ يعلم أحد أن الكذب سيئة وعند التفوه بقول الزور يعلم أنه سيُمنى بسخط الله تعالى ومع ذلك يتفوه به ويكذب. كذلك يَعدُّ أحد الغيبة سيئةً ويعلم أن الله تعالى لا يحبها، مع ذلك لا يمتنع عنها بل تدفعه نفسه نحو ارتكابها.

فهذه هي العراقيل الثلاث التي يواجهها الإنسان في سبيل اجتناب السيئات، فلا بد له أن يزيلها ليفسح له المجال للتقدم في الحصول على العرفان الإلهي. وقبل الخوض في التفاصيل عن إزالة هذه العراقيل كلها أذكر علاجًا عامًا يتعلق بأصحاب القسم الثاني والثالث دون الأول الذين يجهلون السيئات. لم يفهم هذا الأمر إلى يومنا هذا إلا القلةُ القليلة من الناس، بل أستطيع القول أنه لم يفهمه أحد ما عدا الأنبياء والأولياء.

هناك كثير من الأعمال التي تُعدُّ سيئات في نظر الشريعة، إلا أن فاعلها لا يُعدّ مرتكب الإثم من الناحية الشرعية، بل يكون مصابا بمرض جسدي. هذا الموضوع واسع جدًّا وقد أعطاني الله تعالى علمًا خاصًّا به، وأريد أن أكتب عنه بالتفصيل. وعندما يكتمل هذا العلم فإن البعض الذين يُعَدّون اليوم مرضى روحانيين سوف يتوجهون إلى أطباء الأجسام والأبدان لمعالجتهم. إن بعض كبار الأطباء أيضًا تنبهوا إلى هذا الأمر غير أن بحوثهم لا تزال في مهدها حتى الآن، أما ما أعطاني الله تعالى من علم بهذا الموضوع فهو أوسع كثيرًا من بحوثهم. إنه ليس بعلم جديد لم يُعطَ لأحد قبلي، بل أعطي للصلحاء والأولياء ولأحباء الله تعالى على مر العصور، وهو موجود في القرآن الكريم، وأُخبِر به المسيح الموعود عليه السلام أيضا فذكر في كتبه مبادئَه، ولكن للأسف لم يفهمه عامة الناس فلم ينتفعوا به. والآن قد وهبني الله تعالى هذا العلم على نطاق واسع، ولي في هذا المجال بحوث ودراسات كثيرة توصلت من خلالها إلى نتيجة أن ما تعدّه الشريعة إثمًا يمكن أن يتوجه قسم من الواقعين فيه إلى الطبيب العادي لمعالجتهم، وقسم منهم يتجه إلى الصلحاء والأولياء. لقد توصلت في بحثي إلى نقطة، وهي أن بعض الناس يقعون في الإثم جراء مرضهم العضوي، أما الذي لم أبحث فيه بعد فهو أي قسم من هؤلاء الناس ينبغي أن يقصد الطبيب العادي، وأي قسم منهم يجب أن يقصد الطبيب

الروحاني لتلقي العلاج. وعندما يكتمل بحثي في هذا الأمر أيضا فسأتمكن من عرضه كاملا.

هناك علاقة وثيقة بين الروح والجسد لدرجة أنّ كلًّا منهما يتأثر بأمرِ الآخر مهما كان صغيرا، ولقد فصّل فيه المسيح الموعود عليه السلام وكتب أنه كلما مرض الجسم مرضتْ الروح أيضا، والواضح أنه لا يسع الإنسان التركيز على دعائه بالطمأنينة الكاملة والوعي التام أثناء تعرضه للآلام والمعاناة. أوَليس الامتناع عن الدعاء هنا مرضًا روحانيًّا؟ بلى، ولكن علاجه عند الطبيب، وليس عند الرجل الصالح أو الولي. فإنها أمور كتبها الأولون وفهَّمنيها الله تعالى الآن. وكما أن خزائن الأشياء الدنيوية لا تكاد تنتهي بل تزداد يومًا بعد يوم، كذلك تظهر العلوم الروحانية في مواعيدها. لقد فتح الله أبواب هذا العلم في هذا العصر بواسطة المسيح الموعود عليه السلام، ثم إن خلفاءه سيشرحون هذا الموضوع أكثر، أما أنا فلا أدري هل سيتسنى لي التوسع أكثر أم لا -لأنني وقفت أمامكم للخطاب الآن أيضا بعد تناول الدواء- غير أنني لابد أن أخبركم بأن تضعوا في بالكم أنه يمكن معالجة كثير من الأمراض الروحانية بالتوجه إلى الأطباء. فمن يتلو القرآن الكريم ويفهمه ثم لا يدخر وسعا للعمل به، ومع ذلك لا يتخلص من سيئات وآثام، فعليه حينئذٍ أن يحذر من أن يكون مصابًا بمرض عضوي من قبيل الأمراض العصبية، وعليه أن يستشير الطبيب في

صحته. ومع أن الاهتمام بمعالجة الأمراض العصبية قليل جدًّا لدى الأطباء في بلادنا، ولكنني آمل أنه بمعالجة الضعف العصبي العادي أحيانًا يشعر البعض برقي ملحوظ في مجال الروحانية، ويجد في نفسه قوة على اجتناب السيئات، وسيدرك كفاءته في كبح جماح عواطفه. ولكن جدير بالذكر أنه ليست كل حالة فاشلة في تجنب الذنوب تعود إلى مرض عضوي، بل هذا ما يحدث عمومًا، كما تطرأ أحيانا هذه الحالة على الإنسان عقابًا له، ويعود الأمر إلى عادة الإنسان في بعض الحالات. إن معالجة الحالة الأولى من الحالتين الأخيرتين لا يتمكن منها إلا الخبراء في العلاج الروحاني، أما معالجة الحالة الثانية فلا يقدر عليها إلا الخبراء في العلاج الروحاني أيضا أو الخبراء في علم الأخلاق، بحسب مقتضى الحال. فينبغي ألا يُعدَّ هذا الأمر قاعدة عامة.

فإن قال أحد: لماذا يعاقَب مَن يسعى لتجنب السيئات ولكنه لا يتمكن من ذلك جراء مرضه؟ فالرد عليه أنه سيعاقب لعدم معالجته هذا المرض، وهذا التقصير يعود إليه وليس إلى غيره.

علاج أمراض الروح على يد أطباء الجسد

سأكمل بحثي إذا سنحت لي الفرصة. ولكن إن لم أستطع فتذكّروا أن هناك أمراضًا روحانية يمكن معالجتها بواسطة الأطباء. فيجب أن تأخذوا هذا الأمر بعين الاعتبار ثم واصلوا جهودكم وساعدوا ببحوثكم أولئك

الذين يتنبهون إلى هذا الأمر ويبذلون جهودهم في هذا المجال ليحدث انقلاب جديد في العالم، ويتقدم العالم خطوةً أخرى نحو الرقي. على أية حال أكتفي الآن بالقول أن هناك أمراضًا روحانية يتطلب علاجها التوجه إلى الطبيب بدلا من قصد العارفين بالله أو أوليائه، لأن مثل هذه الأمراض الروحانية تنجم إما عن ضعف أعصاب الظهر، أو عن بعض الأمراض الجسدية الخاصة. مثلا، إن الزنا في بعض هذه الحالات لن يكون جريمة أخلاقية أو دينية وإنما يكون نتيجة لمرض دماغي خاص، كما أن عادة النهب والسرقة والكذب أيضا تعود في بعض الأحيان إلى بعض النقائص المرَضية، ولا تحسن معالجتها بالتمارين الروحانية بقدر ما تتم بتلقي العلاج الجسماني. ولكن بما أن بحثي لم يكتمل بعد في هذا المجال لذلك لا يسعني الإسهاب في هذا الموضوع الآن، وأتركه لوقت آخر لنفسي أو لمن وفقه الله تعالى منكم لتبيانه.

طريقة اجتناب الآثام

بعد التعرض لموضوع أن مرض ارتكاب الذنوب قد يعالج أحيانًا بالعلاج الجسدي، أتناول ذكر التدابير الأخرى التي يمكن اتخاذها لتجنب السيئات والموبقات.

أولا: يجب أن يصفي الإنسان حسابه السابق. وهو أمر لا ينتبه إليه الكثيرون ممن يريدون الحصول على العرفان الإلهي، وبالتالي فلا تُثمر

جهودهم ولا تأتي بنتائج مُرضية. يبذلون قصارى جهودهم لإحراز العرفان الإلهي ولكنهم يتبعون طريقًا يخلطون فيه الطيب بالفاسد. ومثلهم كمثل الذي يضيف الحليب الخالص الصافي إلى المتخثر، فلو أضفنا عشرات الكيلو غرامات من الحليب الطازج إلى كمية قليلة من الفاسد أو المتخثر فإنه يفسد ويتخثر. فإن خطأهم الأول أنهم لا يحققون الشرط الأول، في حين كان ينبغي عليهم أن يُصفّوا حسابهم السابق ثم يتقدموا نحو الأمام، لأنه لو كان الحساب الأول خاطئا في سجلّهم فلا بد أن تكون الحصيلة النهائية أيضا خاطئة مهما كان العدد الذي أضيف إليه. ولكن لو كان الحساب الأول صحيحًا كانت الحصيلة النهائية أيضا صحيحة. فعلى من يريد نيل قرب الله تعالى ومعرفته أن يصفي حسابه السابق، ويصلح ما فسد منه، والطريق الصحيح لذلك هو التوبة.

الشرط الأول للفوز بالعرفان الإلهي هو التوبة

الخطوة الأولى والهامة للحصول على العرفان الإلهي هي التوبة. فلا يخطرنّ ببال أحد أنها أمر هيّن نفعله يوميًا، فلا أعني بذلك تلك التوبة التي يقوم بها الإنسان يوميًا، بل هي مختلفة، وسأبينها بالتفصيل. صحيحٌ أن الشرط الأول لنيل العرفان الإلهي هو التوبة؛ ولكنها لا تتحقق بترديد كلمة "التوبة" أو التلفظ بكلمة "أتوب" باللسان.

سبعة أمور تقتضيها التوبة

لا بد من توافر سبعة أمور ضرورية للتوبة الصحيحة، ولا تكتمل بدونها وهي:

١) أن يذكر الإنسان ذنوبه السابقة ويندم عليها إلى درجة يتصبب عندها عرقًا من شدة الخجل من نفسه.

٢) والخطوة الثانية للتوبة هي أن يسعى لما يستطيع أداءه من الفرائض الفائتة، أما ما لا يستطيع أداءه فسيعد مضطرًّا فيه، مثلا إذا كان تاركًا للصلاة فلا يستطيع أداء جميع الصلوات الفائتة –وليس في الشريعة حكم بأدائها كلها– ولكنه لو تاب حين كان لا يزال هناك وقت لصلاة ما فعليه أداؤها فورًا. وإن لم يحجّ رغم الاستطاعة فعليه بعد التوبة أن يحجّ الآن. أو إذا لم يؤد الزكاة في الماضي فعليه أن يترك ما مضى ويبدأ في أدائها من هذه السنة.

إذًا يجب عليه أولا أن يندم على ذنوبه السابقة، ثم يجب أن يؤدي ما يستطيع أداءه من الفرائض الفائتة.

٣) والشرط الثالث هو أن يسعى التائب لإزالة ذنوبه السابقة. ولا أقصد من الإزالة أن يُحيِي شخصًا كانَ قد قتَلَه، أو يحاول إزالة الزنا الذي ارتكبه سابقًا، بل المراد من إزالة الذنوب السابقة هو ما يمكن إزالته. مثلا إذا كان قد سرق جاموسًا وهو لا يزال معه، فليردّه إلى صاحبه.

٤) والشرط الرابع هو أنه إذا كان قد آذى أحدًا فعليه بإزالة أذاه وطلبِ العفو منه. إنها لمسألة دقيقة أن الله تعالى قد اشترط على المرء أن يطلب العفو من العباد لغفران ذنوب ارتكبها في حقهم، فإن عفوا عنه فلن يؤاخذه الله تعالى. فلو آذى الناسَ فعليه السعي لكسب رضاهم قدر الإمكان. ولكن يجب أن نتذكر أن الله تعالى ستّارٌ يستر ذنوبًا وسيئاتٍ كبيرة لعباده، لذا فعلى المرء أيضا أن يستر نفسَه، ولا يكشف للناس ذنوبه التي قد سترها الله تعالى. فمثلا إذا كان قد سرق شيئًا من أحد في الماضي فيجب أن لا يذهب إليه ويخبره بأني قد سرقت منك كذا وكذا. إن مثل هذا الفعل في حد ذاته إثمٌ، وينبغي ألا يزيل آثامه بهذا الطريق. بيد أن هناك ذنوبًا يعرفها الآخرون أيضا، فمثلا إذا ضرب أحدًا أمام الناس، فعليه بتدارك مثل هذا الذنب وطلب العفو منه، أما ما ستره الله تعالى من ذنوبه فعليه ألا يكشفه للناس.

٥) والشرط الخامس هو أن يحسن المرء قدر المستطاع إلى الذين ألحق بهم ضررًا، وإذا لم يستطع ذلك فليَدْعُ لهم بخير على الأقل. لقد كتب أولياء الله الكرام أنه إذا أكل أحد مال غيره و لم يستطع دفعه إليه، فعليه أن يدعو الله تعالى ويقول: يا رب، إني لا أقدر على دفع ماله، فأعطه إياه من عندك.

٦) والشرط السادس هو أن يتعهد التائب بعدم ارتكاب الإثم في المستقبل، ويعقد العزم بعدم ارتكاب مثل ذلك الإثم بعد الآن –ولو وقع

في الإثم مرة أخرى مضطرًا فهو أمر آخر- أما عند التوبة فيجب أن يعقد العزم على عدم ارتكابه. ليس المراد منه أن يأثم ليلا ويعقد العزم صباحًا على عدم ارتكابه في المستقبل، بل ينبغي أن تصفو نيته عند تعهده، ثم يسعى جاهدًا لتجنب الوقوع في الإثم.

٧) والشرط السابع هو أن يرغّب الإنسانُ نفسَه في فعل الخيرات، ويُعِدَّها للعمل بالحسنات.

هذه هي الأمور السبعة التي لا بد منها للتوبة الصادقة، ولا تكتمل توبته ما لم يفِ المرء بهذه الشروط كلها. ويمكنكم أن تفكروا الآن في أنفسكم أهذه هي التوبة التي كنتم تقومون بها أم كانت مختلفة؟ لا يأخذ الناس عمومًا في الحسبان ما يتوبون عنه ولا يعرفون لماذا يتوبون؟ بل تخرج هذه الكلمة من لسانهم عفويًا على شاكلة الإنجليز الذين يكثرون من العبارة Beg your pardon أي أستميحك العفو، في حين لا يخطر ببالهم طلب العفو على وجه الحقيقة. فلا يمكن أن تكون توبة هؤلاء توبة حقيقية ولا يمكن أن تنفعهم. والآن على كل واحد منكم أن يقوم بالتوبة آخذًا بعين الاعتبار الأمور التي بينتها لكم آنفًا، وذلك حتى تتم تصفية الحساب السابق، لأنه لا يمكن أن يبدأ الإنسان صفحة بيضاء ما لم يُصفِّ الحساب السابق. فعلى الجميع أن يسعى إلى التوبة الصحيحة الخالصة من أجل تصفية حسابه السابق. تكفل طرق التوبة التي ذكرتها آنفًا تصفية الحساب

السابق ولا تُبقي منه شيئا. وبعد هذه التوبة لو حاول الإنسان أن يكون عارفًا بالله لتكللت جهوده بالنجاح.

عند تصفية الحساب السابق يبدأ حساب جديد لأعمال الإنسان التي يكسبها بعده. قد يتساءل أحد هنا فيقول: تقولون من ناحية أن يصفي الإنسان حسابه السابق، ومن ناحية أخرى تناشدونه بكسب الحسنات، إنه لَعِبْءٌ كبير. اعلموا أن الأمور الروحانية تبدو في الظاهر وكأنها ثقيلة وعبؤها كبير ولكن سر النجاح يكمن في تحمل هذا العبء. جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو الفقر فقال عليه الصلاة والسلام: تزوّجْ، فتزوّج، ثم جاء إليه ثانية يشكو الفقر، فقال له ﷺ: تزوّج ثانية، فتزوج أخرى، إلا أنه جاء وقال للنبي ﷺ: ما كنت أقدر على توفير الطعام لزوجةٍ واحدة، فمن أين أطعم الاثنتين الآن؟ فقال له: تزوَّجْ واحدة أخرى، فتزوَّجَ، ثم جاء وقال: يا رسول الله ﷺ! لقد أوشكت على الموت الآن. فقال له النبي ﷺ: تزوَّجْ أخرى، فتزوَّج، ثم سأله النبي ﷺ بعد فترة من الزمن عن حاله فقال: أرفُل في الثراء، وصرت من الأغنياء.[1]

فهذه هي العُقَد الشرعية التي لا يدرك الجميع كنهها، وأريد أن أوضح هذا الأمر بشيء من التفصيل. فأولا كما قلت إنه لا يمكن للإنسان

[1] أقرب نص وجدناه بهذا المعنى هو: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو إليه الفاقة، فأمره أن يتزوج. (رواه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد"). (المترجم)

التقدم ما لم يصفِّ حسابه السابق، وما لم ينظّف الإناء من الأشياء الفاسدة لا يسلم من الفساد ما يُلْقَى فيه، لذلك لا بد من تدارك النقائص والفساد السابق حتى لا يتعدى تأثيرها إلى أعماله في المستقبل.

وثانيا؛ عند بداية أي عمل جديد يشعر الإنسان بحماس كبير ولكنه لا يبقى على حاله بعد فترة وجيزة. لذلك فعندما يقرر الإنسان الإقلاع عن إثم معين فسيستعد في حينها لتخطي صعوبات شديدة، ولكنه لن يجد في نفسه تلك العزيمة والحماس بعد مضي فترة قصيرة. وعليه فعند بداية أي عمل جديد يشعر الإنسان بالحماس المفرط، لذلك فإن وقت التوبة بشكل خاص فرصة لاتخاذ الخطوات الهامة والأساسية.

أهمية تصفية الحساب السابق والعزم على كسب الحسنات في المستقبل

لو صفّى الإنسان حسابه السابق لتحلّى بقوة للعمل في المستقبل، ذلك لأنه كلما تخلص الإنسان من الأثقال القديمة تسنى له التقدم نحو الأمام بيسر وسهولة.

والآن أتناول الأمور الضرورية الكفيلة بتصفية الحساب في المستقبل والتقدم في مجال البر وكسب الخير.

فإن الأمر الأول والهام لإحراز التقوى الذي يؤدي بالإنسان إلى العرفان الإلهي هو أن يطهر أفكاره. سأشرح هذا الأمر أكثر وعند ذلك تعلمون أنه

طريق عجيب للفوز بالتقوى. ليس المراد من تطهير الإنسان لأفكاره ألا تنتابه أفكار سيئة مطلقًا -بل هو أمرٌ مستحيل بالنسبة إلى معظم الناس- إنما المراد به عدم الاستسلام والانقياد لها. فمثلا لو خطر ببال أحد أن يرتشي فعليه ألا يطيل فيه فكره ويتحرى طرقا لتحقيق ذلك، بل يجب أن يتخلى عن هذه الفكرة بأسرع ما يمكن حتى ولو باغته هذا الخاطر لاحقًا وصدر منه الخطأ. ولكن عليه أن يحاول طرد الأفكار الفاسدة بمجرد أن تخطر بباله، وسيكون هذا الأمر مفيدًا جدًّا لأن الذي يحاول جاهدًا طرد فكرة الارتشاء من قلبه ثم يرتشي عندما يجد فرصة سانحة، لهو أقرب إلى الإصلاح ألف مرة من الذي تراوده أفكار أخذ الرشوة كل حين فينقاد لها ويبحث عن طرقها ومواضعها. والسبب في ذلك أن هناك تأثيرًا كبيرًا لما يراود الإنسان ويظل في قلبه كل حين، لأنه يستقر وينقش في قلبه لدرجة أنه يصعب محوه. أما ما يسارع الإنسان بطرده فلا يمكن أن ينقش فيه أو يترسخ. فعليكم أن تطردوا الفكرة السيئة بمجرد أن تنتابكم، وتنشغلوا عنها بأمور أخرى. لا تظنوا أن طرد الأفكار السيئة لا يفيد شيئًا. كلا! بل كلما طال مكوث الفكرة السيئة في القلب كلما ترسخت أكثر، وإذا سارع الإنسان بطردها استطاع تجنب نتائجها السيئة الكثيرة.

ولا يظنن أحد أن طرد الفكرة السيئة صعب للغاية، بل هو أسهل ما يكون، وطريقه أنه كلما مس أحدًا طائفٌ من الشيطان فليحاول أن

يشغل نفسه بعمل حسنٍ، كأن يبدأ النقاش مع أحدٍ في أمر يفيده، أو يسعى للوصول إلى حلّ بعض قضاياه العالقة مع أحدٍ، لأنه بهذه الطريقة ينقذ نفسه من الوقوع في أخطر الآثام. فحتى ولو ضعف واضطر إلى ارتكاب السيئة عند سنوح الفرصة له، مع ذلك ينبغي عليه الاستمرار بمحاولة طرد فكرة ارتكابها من قلبه قبل تلك الفرصة وبعدها، لأنه بذلك سوف يتقوى رويدًا رويدًا ويتمكن من السيطرة على نفسه، والابتعاد عن هذا الإثم ابتعادًا كليًّا.

حقيقة الأفكار والخواطر

لا تظنوا الخيالات أمراً تافهًا لا يؤبه له. كلا، بل إن جميع الأمور العظام التي تتم في العالم اليوم إنما هي نتاج فكر الناس. فمثلا عندما يؤمن أحد بالإسلام فإنما يبدأ من فكرة تطرأ بباله، كذلك بداية جميع أعمال الإنسان تكون من فكرة تخطر بباله. لذلك لا تظنّوا أن الخيال أو الفكرة أو الخاطرة شيء لا حقيقة له، بل هو الحقيقة الواقعة.

ويمكن أن يقول أحد: لا نرى الفكرة أو الخاطرة رأي العين فكيف يمكن أن تكون لها حقيقة؟ ونقول: هل تتراءى في بذرة صغيرة تلك الشجرة الكبيرة التي تنبت منها لاحقًا؟ ثم فكّروا في خلق الإنسان، أليس ذلك نتاج فكرة شهوانية تخطر بالبال. فإذا كان خلق الإنسان أيضا نتيجة فكرة تخطر بالبال، فمن يسعه إنكار هذه الحقيقة الواقعة؟

باختصار، كل ما يقوم به المرء من أعمال ومهام يرجع إلى فكرة تكون قد نشأت لديه في البداية.

فلو قال أحد: لا تحقق الفكرة لوحدها شيئًا، ولولا الأمور الأخرى لما أنتجت الفكرة شيئا، وبالتالي فإنها شيء تافه لا قيمة له!

أقول: إذًا لا بد أن تعدّوا البذرة التي تَنبتُ منها شجرة كبيرة أمرا تافها أيضا، لأنها لا تتحول إلى شجرة بل المادة التي تمتصها من الأرض تساعدها على الظهور بصورة شجرة. فلو أنكر أحد حقيقة البذرة بحجة أنها لا تستطيع أن تتحول إلى شجرة ما لم تتوفر معها أمور أخرى فيمكنه في هذه الحال أن ينكر حقيقة الأفكار أيضا. وما دام لا ينكر أحد حقيقة البذرة فلا يسع أحدا إنكار حقيقة الأفكار أيضا. فاعلموا يقينًا أن الخيالات والأفكار والخواطر ليست شيئًا بلا حقيقة، بل هي المادة الأولية لجميع الأمور، وهي تفضي إلى نتائج عظيمة. ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٥). ليس المراد من الآية أن الله تعالى يؤاخذ الإنسان على كل ما يخطر بباله من الأفكار السيئة ولو كانت طارئة، لأنه تعالى يقول بأنه لا يؤاخذ نفسا بما ليس في وسعها، وهذا ما يؤكد عليه النبي الكريم ﷺ أيضا؛ مثلا لو رأى أحد مالا في الطريق وخطر بباله أن يأخذه، فلا يؤاخَذ على مجرد طروء هذه الفكرة، ولكنه لو شرع يفكر في طريقة

الاستحواذ على هذا المال وفي البحث عن فرصة مناسبة لأخذه، فإن الركون إلى هذه الخواطر أمرٌ يؤاخذ عليه. فلما نزلت هذه الآية جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ وقالوا: قد تخطر بالبال فكرة سيئة دون أن يفكر فيها الإنسان، فهل نهلك بسببها؟ قال رسول الله ﷺ: مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً. (البخاري، كتاب الرقاق، باب من همّ بحسنة أو سيئة)

فمعنى الآية المذكورة أن ما عقد عليه قلب الإنسان من أفكار وخواطر، وما ركن إليه وسعى للتفكير في وسائل تنفيذه، فهو ما يحاسب عليه، وإلا فإن همّ بالسرقة إلا أنه طرد فورًا هذه الفكرة فكأنه عمل حسنةً. كذلك لو همّ بقتل أحد ثم طرد هذه الفكرة فكأنه كسب حسنة، ولا يستوجب عقابًا إلا إذا عقد العزم وسعى للتفكير في وسائل تنفيذها.

الخطوة العظيمة لإصلاح الأعمال

يجب أن تتذكروا هذه النقطة لأنها خطوة هامة لإصلاح الأعمال. صحيح أنكم لا تقدرون على منع الفكرة السيئة من اقتحام خواطركم، ولكنكم قادرون على طردها، فعليكم بطردها فورًا.

حكاية لطيفة

كان المسيح الموعود عليه السلام يذكر لنا حكاية شخص كان يخرج من أحد البساتين حاملا سلة كبيرة مليئة بالعنب، وإذ فاجأه صاحبُ البستان وسأله:

لماذا قطفت العنب من بستاني؟ فقال له: اسمعني أولا ثم افعل ما بدا لك. لقد طوّح بي إعصارٌ عظيمٌ وألقاني عند قطوف العنب في بستانك، فأخذت أحرّك يديَّ إنقاذًا لنفسي من الهلاك، فاصطدمتا مع عناقيدِ العنب، فأخذت تتساقط في هذه السلة الموجودة هناك سلفا. فأي ذنب اقترفته في هذه القصة كلها؟ قال البستاني: كلامك صحيح ولعل الأمر حصل على النحو الذي ذكرتَه، ولكن مَن وضع السلة على رأسك يا تُرى، ومن قال لك أن تأخذها إلى بيتك؟ فقال الشخص: هذا ما كنت أفكر فيه أنا أيضا!

هذه هي حال شخص يفسح في قلبه مجالاً للفكرة السيئة ثم يرسخها فيه. فمع أنه لا يعدّ مجرمًا بمجرد التفكير العابر في أمر سيئ، ولكنه أجرم عند إبقائه في قلبه وعدم طرده. فلن يُؤاخذ على مرور الفكرة السيئة على قلبه ولكنه سيُسأل ويؤاخذ على إبقائها وترسيخها فيه. وإن طرد الأفكار السيئة أمر يقْدر عليه الإنسان ولا يخرج ذلك عن نطاق قدرته.

الطريق الأول لتزكية النفس

فالطريق الأول لتزكية النفس هو أن يستمر الإنسان في طرد الأفكار السيئة والفاسدة من قلبه.

الطريق الثاني

والطريق الثاني الذي ذكره القرآن الكريم للحصول على التزكية —بل هو الطريق الأمثل لإحراز النجاح في جميع الأمور— هو ما ورد في قوله

تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٩٠) أي ليس البرّ بأن تتحملوا مشقة كبيرة وتدخلوا البيوت متسوّرين الجدران، إنما البر بالتقوى، فعليكم اتباع الطرق المشروعة التي وضعت لكل عمل من الأعمال، واتقوا الله لتكونوا فائزين وناجحين.

لقد بين الله تعالى في هذه الآية أنه لا بد من اتباع تلك الوسائل اللازمة التي حددها الله تعالى من أجل النجاح في كل عمل من الأعمال. وبما أن الوسيلة الصحيحة لنيل العرفان الإلهي هي تزكية النفس، ولا تتحقق تزكية النفس ما لم يتجنب الإنسان السيئات ويتحلّ بالحسنات، لذلك لا بد من أن يعلم الإنسان علمًا كافيًا بالأعمال التي يحبها الله تعالى والتي لا يحبها. لقد سجل المسيح الموعود عليه السلام قائمة أوامر الله تعالى ونواهيه بهامش نسخة القرآن الكريم التي كان يدأب على تلاوتها، وهو أمر يدل على حرصه عليه السلام على الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه.

على أية حال، لا بد من العلم بهذه الأمور من أجل تزكية النفس، ثم بعد ذلك يسهل للإنسان هذا الأمر، لأنه يخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم. فبعد أن يعلم الإنسان بالأوامر والنواهي، عليه أن يسعى للعمل والالتزام بها، فإن فيها يكمن سر النجاح. ولكن لو أخطأ في العمل أو لم يستطع إكماله جيدًا فينبغي ألا يكف عن محاولاته بل عليه مواصلتها لأنها

تؤدي إلى رقيه في المستقبل. وليتذكر أنه عليه المداومة والالتزام بجميع تلك الأمور التي لا يكتمل الإيمان بدونها وعليه ألا يَترك واحدًا منها.

الطريق الثالث للتصبغ بصبغة صفات اللّه

الطريق الثالث للتصبغ بالصفات الإلهية هي أن يتذكر الإنسان الأوامر والنواهي التي يؤدي العمل بها أو الامتناع عنها إلى نيل تزكية النفس، ويرددها مرة بعد أخرى. لأن ما كثر ذكره وترداده رسخ في القلب. وأشرح لكم هذا بذكر مثال له: يجب على من يستشيط غضبًا على أتفة الأمور أن يفكر وقت فراغه في أنه سريع الغضب، وأن عمله القبيح هذا يحول دون رقيه الروحاني، وبذلك لن يعود إلى مثله أبدًا. وينبغي أن يذكر هذا الأمر مرة بعد أخرى حتى يترسخ في قلبه فينجو من هذا المرض. وإن لم يتذكر مثل هذه العزيمة على فعل شيء أو الامتناع عنه، فعليه العمل بطريق آخر وهو أن يعاهد على أن يفعل أمرًا أو يمتنع عنه اليومَ على الأقل، وذلك لأن الإنسان يخاف بطبيعته من عقد عزيمة طويلة الأمد، وهكذا سيتقيد بها ذلك اليوم، وستلومه نفسُه إن لم يستطع الثبات على موقفه ليوم واحد. ثم قبل نهاية اليوم الأول يجب أن يجدّد مع نفسه عهدًا ليوم آخر، وهكذا يواصل تجديد هذا العهد يومًا بعد يوم حتى يسيطر على نفسه كليًّا. فهكذا يجب عليه مدافعة النفس لترك العادات المعيبة رويدًا رويدًا دون أن يلقي عليها عبئًا كاملا مرة واحدة، إذ يصعب عليه هكذا

أن يلقى نجاحًا يذكر، بل التقدم شيئا فشيئا بعمل يسير والمثابرة عليه يؤدي إلى إحراز النجاح. فعليكم بحمل النفس على العمل الحسن بالتدريج مرةً بعد مرة، ثم يجب تكرار الأمر حتى تتعوده النفس. إن نفس الإنسان كالطفل لذا ينبغي أن تُعامَل بمعاملة الأطفال، ولتعليم النفس الأمورَ الروحانية ينبغي استخدام طريقة تعليم الأطفال في المدارس، وهي إعطاؤه أولاً درسًا صغيرًا ثم يمكن الزيادة فيه رويدًا رويدًا.

هذا، وهناك طريق آخر لتزكية النفس وهو تكرار الأمر، وهو أيضا ثابت من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ٩٤). لقد أمرنا الله تعالى بالتقوى ثلاث مرات في هذه الآية، وفي كل مرة ذُكرتْ نتيجةٌ مختلفة للتقوى، فنتيجة النوع الأول من التقوى هي الحصول على الإيمان والأعمال الصالحة، وهي الأعمال التي يكسبها الإنسان بجميع شروطها وبالإيمان الخالص. قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ لكنه ذكر معه ﴿وَآمَنُوا﴾ فقط، وقد يُعترض عليه بأن نتيجة التقوى الأولى هي الإيمان والأعمال الصالحة، أما نتيجة التقوى الثانية فهي الإيمان فحسب. فاعلموا أن هناك إيمانًا لا تنتج عنه الأعمالُ الصالحة حتمًا، وهناك إيمانٌ لا يُنتج إلا الأعمال الصالحة. فالإيمان الأول

هو من النوع الأول الذي لا يسفر بالضرورة عن الأعمال الصالحة، لأنه ليس بالإيمان القوي بحيث يؤدي إلى الأعمال الصالحة أيضا، لذلك فقد أمرنا الله تعالى بالعمل الصالح معه. أما الإيمان الذي ذُكر ثانيةً فهو أقوى من الأول فيُفضي إلى صدور الأعمال الصالحة من صاحبه تلقائيًا، لذلك لم يذكر الله تعالى معه الأعمال الصالحة.

ثم قال مرة ثالثة: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ ونتيجة لذلك ستكونون من المحسنين. وهذا يشير إلى أن تكرار العمل يزيد الإنسان رقيًا خاصًا في إيمانه، ويتقدم خطوة عند كل مرة.

لقد ذكر النبي ﷺ معنى كلمة الإحسان المذكورة في هذه الآية حيث قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. (البخاري، كتاب الإيمان) وهذا ما يسمى بالعرفان الإلهي. فتتضح من هذه الآية ضرورة تكرار بعض الأعمال والفائدة العائدة من ذلك التكرار، وكيف أنه يأتي كل مرة بنتيجة أكبر وأفضل من سابقها، لأن الله تعالى يقول بأن الإنسان عندما يتقي فإنه ينال نعمة الإيمان ويوفَّق للعمل الصالح، ثم إذا اتقى أكثر ازداد رقيًّا في الإيمان بحيث تصير الأعمال الصالحة جزءًا من إيمانه، فتصدر منه الحسنات تلقائيًا. ثم إذا اتقى أكثر ازداد رقيًا أكثر وحاز درجةَ المحسن، وشرح الله تعالى هذه الدرجة بقوله إن صاحبها يصبح محبوبًا لدى الله تعالى. فهل من محبٍّ يحتجب عن محبوبِه؟ بل كما

قال النبي ﷺ إن مثل هذا الشخص يرى الله تعالى، وهذا ما يسمّى بالعرفان الإلهي.

الطريق الرابع

الطريق الرابع لتزكية النفس هو المداومة على الأعمال الصالحة. يقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ١٠٠)، أي اعبد ربك إلى أن يحين موعد فراقك من هذا العالم، أي حتى الموت. فكذابٌ من يدعي بأنه حاز على لقاء الله تعالى فلا يحتاج إلى عمل شيء، بحجة أنه إلى متى ينبغي أن يستمر في البحث عنه قابعا في السفينة ما دام قد وصل إلى الشاطئ. فإنه يرى أن الصلاة والصوم والحج والزكاة ليست إلا سفينة للوصول إلى الله، ومن الجهل البقاء في السفينة عند الوصول إلى الله. إنه لقولُ بعض المتصوفة الكذبة والمخادعين بأن الأعمال سفينة موصلة إلى الله تعالى. أفلا نصل إلى الله يومًا؟ وإذا وصلنا فلا حاجة للأعمال بعده. وإنه لقول خاطئ وكذب محض، لأن الذات التي نريد الوصول إليها ليست محدودة، ثم نسير في بحر لا شاطئ له ولا تحده حدود. فمثلنا كمثل الذي يسير في البحر ويريد الوصول إلى منبعه، وليس كالذي يبدأ سفره من شاطئ ويبتغي الوصول إلى شاطئ آخر. فبما أن الله تعالى ليس بمحدود لذلك ينبغي أن لا تكون محدودةً أعمالُنا الهادفة إلى الوصول إليه. أما لو كان الله تعالى محدودًا لكانت صلواتنا

وصيامنا وزكاتنا وحجّنا أيضا محدودة. فما دام إلهنا ليس بمحدود فكيف يمكن أن تكون أعمالنا الهادفة للوصول إليه محدودة. سيعطى لنا أجر أعمالنا اليوم أكثر مما نلناه بالأمس، وسننال عليها أجرًا أكثر غدًا، وهكذا نزداد رقيًا بعد رقي في كل يوم آتٍ.

باختصار، ينبغي أن يداوم الإنسان على العبادات، وألا ينقطع بعد مداومته عليها فترة وجيزة، لأنه لا يتمكن هكذا من الاستفادة بما كسب في مرحلة مداومته عليها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ٩٣).

الطريق الخامس

لا يستطيع الإنسان فهم كثير من الأمور بدون المعلم، ولا بد أن يجد معلّمًا يفهمّه تلك الأمور. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩) أي اجلسوا في مجالس الصادقين لتنالوا القوة والثبات. فمن الضروري أن يستفيد الإنسان من المعلم الكامل، ولأجل ذلك جرت في كل عصر سلسلة المجددين والأولياء والمؤمنين الكاملين، فإنْ انعدم هؤلاء أرسل الله تعالى نبيًا، وبالتالي ينبغي عند ذلك الاستفادة من إرشاده. فكما لا يسع الطالب دراسة الكتب واستيعابها بل يحتاج إلى الأستاذ، كذلك لا يسعه تخطّي المدارج الروحانية تلقائيا بل يحتاج إلى معلم روحي له، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ (النور: ٥٦)، أي أن الله تعالى سيبعث في الأمة المحمدية الخلفاء على الدوام. لم يصرح الله تعالى كيف يكون هؤلاء الخلفاء، بل اكتفى بقول أنهم سيكونون مشابهين للخلفاء الذين كانوا في الأمم السابقة. ولما كان الخلفاء في الأمم السابقة سياسيين وغير سياسيين أيضا، كذلك سيكونون في هذه الأمة. ولكن لماذا يكون هؤلاء الخلفاء في الأمة المحمدية؟ فالجواب: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٦) أي حتى تتم إقامة الدين بواسطتهم، ويقوموا بإصلاح الناس، ويصبحوا معلمين لهم. وعليه فإن الله تعالى أيضا يؤكد على ضرورة الأستاذ أو المعلم، مما يعني أنه أمر لا بد منه. فبواسطة الأستاذ يستطيع الإنسان معرفة أمور كثيرة خلال دقائق معدودة في حين أنه لو حاول معرفتها بنفسه فقد تقتضي منه سنوات طويلة. فلو بدأ الطلاب استخدام المعاجم منذ بداية دراستهم لما أحرزوا في سنين طويلة ما يتلقونه بواسطة المعلم خلال أيام معدودة. خذوا مثلا هذا الخطاب الذي أُلقيه والأمور التي أبينها، فلو حاولتم البحث عن هذه الأمور والتحقيق فيها لاستغرق ذلك سنوات طويلة. ولكنكم سمعتم إلى الآن خلال ساعات قليلة ما يستغرق الحصول عليه سنوات طويلة، وذلك بعد بذل جهود مضنية. فلا بد من الأستاذ أو المعلم، وقد وعدكم الله

تعالى أنه سيعطيكم المعلمين دومًا. ولا حاجة بكم إلى البحث عن المعلم لأنكم انضممتم إلى جماعة منظّمة يختار الله تعالى فيها بنفسه المعلمين ويقيمهم لكم. فلا تواجهون تلك الصعاب التي تعترض سُبل غيرِكم، وعليه فينبغي أن تستفيدوا أكثر.

الطريق السادس

الأمر السادس الذي يستطيع الإنسان أن ينتفع به كثيرًا هو محاسبته لنفسه. فإن انتفع بها الإنسان تمكن سريعًا من إحراز تزكية النفس. ولكن لا تعني محاسبة النفس كما هو معروف لدى الناس، بل كما سأبينه لكم لأنه سيتضح من خلاله المراد الحقيقي من المحاسبة، وكما ستتبين لكم العراقيل التي تعترض سبيلها، وكيف يمكن إزالتها، وكيف ينبغي أن نقوم بالمحاسبة. أبيّن لكم ذلك أولاً من القرآن الكريم. يقول الله تعالى عن ضرورة المحاسبة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة: ٧)، أي كان الناس بحاجة إلى أن يُحصوا أعمالَهم لأنهم كانوا سيحاسبون عليها، إلا أنهم ظلوا ينسونها ولكن الله تعالى ظلّ يحصيها، وبالنسبة للإنسان هذا شيء عجيب ومخالف للعقل والحكمة.

يتضح من هذه الآية أن محاسبة النفس ضرورية. يقول الله تعالى أن الأَولى بالإنسان أن يحاسب نفسه لأنه ماثل للحساب يوم القيامة، فكان

ينبغي أن يضع أعماله نصب عينيه، ولكنه لم يفعل ذلك. فهكذا ثبتت محاسبة النفس من القرآن الكريم. إضافة إلى ذلك هناك قول شهير لعمر ﷺ وعُدَّ خطأ حديثًا نبويًا وهو: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا." (الترمذي، أبواب صفة القيامة)

نوعان للمحاسبة

اعلموا أن المحاسبة نوعان، وبينهما فرق دقيق لم يدركه كثير من الناس، وبالتالي لم يفهموا المحاسبة أصلا كما لم يستطيعوا تنبيه الآخرين أيضا إلى هذا الأمر. فيجب أن تتذكروا جيدًا هذين النوعين من المحاسبة. نوع منهما يتعلق بالجزء والآخر بالكل. لم يستطع عامة الناس فهم المحاسبة لعدم استيعابهم الفرق بين هذين النوعين. يتعلق النوع الأول بكل عمل بصورة فردية، والثاني يتعلق بجميع الأعمال من حيث المجموع. ويُعنى النوع الأول بإصلاح الأعمال والثاني بصقلها. لقد خلط الناس بينهما أو لم يذكروا إلا النوع الثاني منهما، ولكن المحاسبة الحقيقية المفضية إلى فائدة كبرى هي أن يحاسِب المرءُ نفسَه بالطريقتين معًا.

ثلاثة أنواع فرعية للمحاسبة

أذكر الآن تفصيل هذين النوعين من المحاسبة. النوع الأول الذي يتعلق بأجزاء الأعمال ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ١) المحاسبة الابتدائية، ٢) المحاسبة الوسطى، ٣) المحاسبة الآخرة.

المحاسبة الأولى أو الابتدائية

على الإنسان محاسبة نفسه قبل الشروع في أي عمل من الأعمال، ويجب أن يسائلها السؤالين التاليين:

١) ما هو الغرض من هذا العمل؟

٢) لأجل مَن يشرع في هذا العمل؟

إذا كان العمل سيئًا فإنه يستفيد من التساؤل الأول معرفةَ قبحه، لأن سوء شيء أو حسنَه منوط بالغرض المتوخّى منه. فعندما يتساءل وتردّ عليه نفسُه مُظهرة عليه سيئة عمله، سيخجل في قلبه، فتخمد ثائرة نفسه، لأن الخجل يُخمد ثوائر النفس. على سبيل المثال، إذا خطرت بباله السرقة تساءل: لماذا أقوم بها؟ سيتلقى الرد: للحصول على المال. فليتساءل: ألم يشرع الله تعالى وسائل أخرى للحصول على المال؟ فلماذا أسرق أموال الآخرين دونما سبب؟ أفلا أكرَه ذلك بشدة لو عاملني أحد بمثل هذه المعاملة؟ وبهذه الأسئلة يُفحم نفسَه ويمتنع عن ارتكاب السرقة. فهي المحاسبة الأولى التي يجب أن يقوم بها الإنسان قبل الشروع في أي عمل.

وجدير بالذكر هنا أنه -عند تساؤله عن عمل ما- قد يصادف أن تردّ عليه نفسُه بأنه حسنة وعمل من قبيل الخير والبر، ولكنه لو أطال النقاش مع نفسه قليلا لضُبطت متلبسةً وأصابها الندم. وهكذا سيتخلص من كثير من الذنوب عند التساؤل الأول، وسينجو من كثير منها عند

التساؤل الثاني أو الثالث. وقد يعلم بعد هذه المحاسبة أن العمل الذي يُقدم عليه خيرٌ له وهو نافع للآخرين أيضا. فينبغي ألا يترك العمل على المحاسبة الأولى بل يحاول العمل بالجزء الثاني منها أيضا وهو:

يجب أن يتساءل: لأجل مَن أشرع في هذا العمل؟ وسيعرف من خلال هذا التساؤل أن كثيرًا من الأعمال التي تبدو حسنات في الظاهر هي سيئات في الحقيقة. فمثلا لدى قيامه بالصلاة أو التصدق أو الإحسان تُثبت له نفسُه في المحاسبة الأولى أنها أعمال نافعة. فلو أراد بها رياء الناس أو كسب سمعةٍ، فعند السؤال الثاني ستزول غلالة الحسنة التي ألبستها نفسُه هذه الأعمالَ، وبالتالي سينكشف له أن هذه الحسنة في حقيقة الأمر كانت سيئة، وهكذا سيغير نيتَه وإرادتَه ويجعلها لله فحسب أو لنفع بني نوع الإنسان، ويستبدل بالسيئة الحسنة.

وبعد هذه **المحاسبة الابتدائية** تكون **المحاسبة الثانية**، ويجب أن يقوم بها المرء عند إقدامه على أي عمل. وهي الأخرى محاسبة نافعة جدًّا، وطريقتها أن يتساءل أثناء كل عمل يقوم به: كيف أُنْجِز هذا العمل؟ ويعني ذلك ما هي الوسائل التي أَستخدمها لإكماله. هناك حاجة ماسة إلى هذه المحاسبة، لأن الإنسان يبدأ في عمل خير بنية صالحة وإرادة حسنة إلا أنه يستخدم لإكماله وسائل غير سليمة، أو لا ينجزه بالشروط التي كان ينبغي أن يحققها في إنجازه. فلو كرر هذا التساؤل أثناء كل عمل يقوم به فسيتدارك أي خطأ يحصل في طريقة العمل التي يتبعها.

ثم يأتي دور **المحاسبة الثالثة** والأخيرة التي يجب القيام بها عند انتهاء العمل. وطريقتها أن يسأل المرء نفسه عن التأثير الذي تركه هذا العمل في قلبه. إنّ هذا التساؤل على جانب كبير من الأهمية، لأن الإنسان يقوم أحيانا ببعض الأعمال الصالحة بطريقة مشروعة وحسنة، ولكن يتولد بعدها في قلبه العُجب والتكبر فيهلك. فلو حاسب نفسَه بعد كسبه الحسنة عرف الأثرَ الذي تركته في قلبه، وبالتالي لو كانت هناك بذرة للتفاخر والمكابرة في قلبه لعرفها في بدايتها قبل أن تصبح شجرة ضخمة، فيلوم نفسَه ويصون أعمالَه من الضياع. أما لو رأى تأثيرها في قلبه بصورة حسنة بحيث ازداد تذلّلا وتواضعًا لله تعالى فلا بد أن يكون هذا التأثير الحسن دافعا له نحو كسب حسنات أخرى، فيخطو نحوها بكل رغبة وشوق.

باختصار، إن **المحاسبة ثلاثة أنواع؛ الأولى**: أن يسائل نفسَه عندما يخطر بباله أن يقوم بعمل ما، ففي هذا الوقت يتساءل: لأي غرض ولأجل من يقوم بهذا العمل؟ وهذه هي **المحاسبة الابتدائية**.

أما **المحاسبة الثانية** فهي أن يسائل نفسه عند الشروع في العمل وعن طريقته لإنجاز هذا العمل. وهذه هي المحاسبة الوسطى.

أما **المحاسبة الثالثة** فهي مساءلته نفسَه عند إتمامه هذا العمل عن التأثير الذي تركَه هذا العمل في نفسه. وهذه هي المحاسبة الآخرة.

فلو دأب الإنسان على مساءلة نفسِه على هذه الشاكلة لاعتادها بعد فترة، ستنشأ في نفسه أسئلة تلقائيا عند تفكيره في عمل من الأعمال. هذا النوع من المحاسبة يتعلق بأجزاء الأعمال.

والنوع الثاني هو ما يسمى بالمحاسبة الكلية. ومن الصعب على الإنسان أن يقوم بمحاسبة نفسه على جميع أعماله، لأن الإنسان كثيرا ما ينسى أعماله. وبما أن هذه المحاسبة واسعة تشمل جميع أعمال الإنسان لذلك فقد تفوته بعض أعماله أثناء هذه المحاسبة. ولقد أكد الله تعالى على هذا الضعف الإنساني في قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٣)، أي لقد كنت ناسيًا كثيرا من الأمور التي تذكرتَها اليوم. وعليه فيجب أن تكون هناك طريقة مثلى يحاسِب بها الإنسانُ نفسه على جميع أعماله بكل سهولة دون أن يفوته أيٌّ منها.

فطريقته الطبيعية الأولى هي أن يقسم الإنسان أعمالَه. فمثلا يمكن أن يقسم حسناتِه على النحو التالي:

الأول: الحسنات المتعلقة بالله تعالى.

الثاني: الحسنات التي تتعلق بنفسه.

الثالث: الحسنات التي تتعلق بسائر الخلق.

وعلى النحو نفسه يمكنه أن يقسم سيئاته أيضا. فلو حاسب نفسه مراعيًا هذا التقسيم لتذكر كثيرًا من الأمور المنسية.

أربعة أنواع للأعمال الصالحة

يمكن تقسيم الأعمال بطريقة أخرى أيضا. فمثلا الأعمال الحسنة على أربعة أنواع.

الأول: ما يستفيد بها الإنسان وينتفع بها الآخرون أيضا، إلا أنه لا يأتي بها أحيانًا تعصّبًا، فلينظر إذا فاته شيء من مثل هذه الأعمال.

الثاني: هي التي لا ينتفع بها الإنسان إلا أن غيره يستفيد منها.

الثالث: هي الأعمال التي لا ينتفع الإنسان من الإحجام عنها ولا يتضرر، إلا أن عدم القيام بها يؤدي إلى إلحاق الضرر بالآخرين.

الرابع: هي الأعمال التي يتكبد الإنسان بسببها خسارة، إلا أنها تفيد الآخرين.

فلو أفرد الإنسان كل هذه الأعمال وأجال النظر فيها لسهلت عليه محاسبة نفسه.

هكذا يمكنه اتباع الطريق نفسه في الأعمال المنهي عنها أيضا.

طريق سهل لإصلاح الأعمال

ومن أعظم فوائد هذا التقسيم تعرُّف الإنسان من خلاله على أصول الأعمال وعلى فروعها، وبالتالي يسهل له إصلاح أعماله إن حصل نقص في بعضها. ولكن لا يقدر الجميع على هذا النوع من المحاسبة. لذلك أخبركم بطريقة سهلة للغاية، وهي أنه بدلا من محاسبة الإنسان نفسه

سنويًا أو بعد كل ستة أشهر أو أربعة أشهر أو بعد شهرٍ واحدٍ، عليه أن يضع علاماتٍ على جميع الأوامر والنواهي الواردة في القرآن الكريم، ثم يتعهد بقراءة ركوع أو ركوعين أو ثلاثة أو الجزء الذي يقْدر على قراءته يوميا. وينبغي ألا يقرأه كالببغاء بل يتدبر الأوامر والنواهي بكل اهتمام، ثم كلما مر بأمر من هذه الأوامر تساءل عمّا إذا كان يقوم به أم لا؟ وكلما مرّ بنهي تساءل عمّا إذا كان يجتنبه أم لا؟ وهكذا ستتم محاسبة نفسه بكل سهولة.

اعلموا أن من يريد إنشاء بيت يطلب من مهندس أو من أحد الخبراء تقدير الأمور الضرورية له، وذلك حتى لا يفوته شيء يحول دون اكتمال البيت. كذلك يضطلع القرآن الكريم بدور المهندس في بناء الصرح الروحاني، فلا بد أن نسأله عن الأمور الضرورية لكمال الإيمان. والطريق الأمثل لذلك هو التدبر في كل أمر ونهي أثناء تلاوته، ومساءلة الإنسان نفسَه عما إذا كان يعمل بحسب تلك الأوامر والنواهي أم لا. فهذا هو الطريق الذي يستطيع كل ساع أن يسلكه، ولكنه بحاجة إلى أخذ الحيطة من تصديق نفسه وقبول قولها في هذا الخصوص.

حقيقة الغِيبة

لنأخذ الغيبة مثلا، فلو قالتْ للإنسان نفسُه بأنه لم يغتب قط، فلا يقبل منها فورًا، بل عليه أن يتفقّد أعماله أولا، ثم إذا عَلِم بعد هذا

التحقيق أنه لم يرتكب هذه الجريمة، فعليه أن يقوم بتعريف الغيبة وشرحها. فلو أسهب في شرحها لعلم أنه لم يفهم الغيبة سابقًا ولأجل ذلك كان يظن أنه لم يغتب قط. ومن الناس من يذكرون سيئات الآخرين، وإذا قيل لهم لماذا تغتابون؟ قالوا: أكذبًا قلناه؟ ويتضح من ردّهم هذا أنهم لا يعرفون ما هي الغيبة؟ إذ يظنون أن الغيبة هو التكلم عن أحد بما ليس فيه، في حين أن ذلك ليس بالغيبة بل هو كذب. أما الغيبة فهي أن تذكر أحدًا في غيابِه بما فيه. فمَن يظنّ أن الغيبة هي ذكرك أخاك في غيابه بما ليس فيه، سيقول في نفسه عند قراءته ﴿وَلَا يَغْتَب﴾: إنه لا يغتاب. ولكنه لو استعرض التعريف الصحيح للغيبة وأجرى المقارنة بينها وبين الكذب لأدرك أنه يرتكب الغيبة.

يقول البعض في مثل هذه الحالة: نستطيع أن نقول هذا الكلام في وجهه. وعليه فكأنهم يعرّفون الغيبة أنها ما لا يمكن ذكره في وجه صاحبه. بينما الحقيقة هي أن مَن يذكر عيوب أخيه في غيابه، ثم يستعد لذكرها في وجهه أيضا، فإنه يرتكب إثمَين اثنين: الأول إثم ارتكاب الغيبة، والثاني إثم جرح مشاعر الآخر وإيلام قلبه. وذلك لأن إظهارَ عيبِ أحدٍ ستره الله تعالى إثمٌ. قال النبي ﷺ: "وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ". (الترمذي، أبواب البر والصلة)، ولكن كثيرا من الناس يرتكبون الغيبة لعدم معرفتهم بتعريفها الصحيح.

كيف يمكن معرفة السيئات

والآن يمكن أن ينشأ السؤال التالي:

كيف يمكن معرفة التعريف الحقيقي للآثام والسيئات المختلفة؟

فالطريق الأول والأمثل هو -كما ذكرت آنفا- أن تتعلموا من الأستاذ. ولكن لما كان صعبًا أن يسأل الإنسان الأستاذَ عن جميع الأمور الجزئية، لذا أخبركم عن طريقة ناجحة أخرى، وهي أن الله تعالى قد أودع في الإنسان مادة الغيرة الفريدة بحيث يجيز لنفسه فعل شيء إلا أنه لو رأى غيره يفعل ذلك ثارت غيرته وكرهه أشد الكراهة. كان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا أنه سأل مرة أحد السارقين: ألا تستنكر السرقة؟ قال: ولماذا أستنكرها؟ إننا نكسب بكدّ اليمين وبعرق الجبين، وليس أحد أكثر منا كدحًا وجهدًا فيما نقوم به. يقول حضرته ﷺ: لما سمعت منه هذا الكلام غيرت مجرى الحديث إلى أمور أخرى، ثم سألته بعد هنيهة: هلا أخبرتني كيف تقسمون فيما بينكم الحلي المسروقة؟ فقال: أحد الصاغة يكون مشتركًا معنا في هذا العمل، فنسلم الحليّ إليه فيُذيبها ويصنع منها سبائك ذهبية أو فضية، ثم نقسم بيننا وفق الأنصبة المتفق عليها. قلت له: ماذا لو اختلس الصائغ جزءًا منها؟ فقال مِن فوره: لو فعل ذلك هذا السارق الخبيث لضربنا عنقه، فهل هذا مال أبيه حتى يستحوذ عليه؟

يتضح من هذا المثال أن الإنسان ينظر إلى أعماله بنظرة مختلفة عن نظرته إلى أعمال الآخرين. فعلى الإنسان ألا يعرّف الإثم نظرًا إلى أعمال نفسه، بل يعرّفه واضعا في الاعتبار أعمال الآخرين، لأنه بهذه الطريقة سوف يعثر على بعض الأخطاء الصغيرة أيضا. وألا يعرّف جريمة من الجرائم بنفسه بل يفهم تعريفها بالتمعن في حالة مرتكبها. فلو رأى أحدًا يرتكب إثما ثم طبّق على نفسه تعريف الإثم الذي فهمه من خلال إمعانه في حالة غيره لعلم أنه يجيز لنفسه ارتكاب كثير من تلك الأعمال بطيب الخاطر، بينما إذا رأى الآخرين يفعلونها ظنّهم يرتكبون الكبائر. فهذا هو الطريق الأسهل والأمثل لمعرفة تعريف الإثم، وباستخدامه لن يبقى احتمال وقوعه في الخطأ إلا ضئيلا جدًّا.

الطريق السابع

الأمر السابع الضروري لتزكية النفس هو تعويد الإنسان نفسَه على التفكير في الأوامر والنواهي التي عَلِمها. لقد سبق أن قلت بضرورة طرد الأفكار السيئة من القلب لأن قرارها في القلب يلحق أضرارًا جسيمة، وأقول الآن بضرورة تثبيت الأوامر والنواهي في القلب لأن قرارَها نافع ومفيد. فينبغي التدبر في بركات الصلاة ومنافعها، وفي حقيقة الصوم والأعمال الصالحة الأخرى ومنافعها، وكذلك ينبغي التفكير في حقيقة الكذب والخداع والغدر والفسق والفجور وغيرها وفي عواقبها، وذلك

لأنه بانكشاف حقيقة الشيء يتولد في قلب الإنسان حبّه أو كراهيته. وقد ورد في القرآن الكريم عن هذا الأمر قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأَعراف: ١٨٠) أي أن بعض الناس يملكون القلوب والأعين والآذان ولكنهم لا يستخدمونها. وهذا يعني أنه لا يُكتَب للإنسان نجاحٌ ما لم يستخدم آذانَ قلبه وعيني فؤاده.

الطريق الثامن

الأمر الثامن لتزكية النفس هو أن يتحلى الإنسان بصفة التلقي والقبول. وألا يكون كالذي يسمع عن شيء ثم لا يسعى للعمل به، بل ينبغي أن ينتبه إلى ما نُبّه إليه ثم يسعى للعمل به. والآية المذكورة تشير إلى هذه النكتة نفسها، فمن يسمع ثم يتصرف وكأنه لم يسمع، ويرى ثم يتصرف وكأنه لم ير، فلا يسعه تحقيق أي نوع من الرقي والازدهار.

الطريق التاسع

والأمر التاسع هو أنه لو نُبّه على خطأ ارتكبَه فليسمعه بتروٍّ وأناة، لأن كثيرا من الناس لا يتمكنون من إصلاح أنفسهم لأنهم يضجرون ويتزمتون إذا أُخبروا عن خطئهم فلا يصلحونه. يجب ألا يكون الأمر كذلك، بل على الإنسان أن يلقى تنبيهَه على خطئه بكل أناة وحلم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٧) أي أنّ مِن الناس مَن لو قيل له اتق الله أخذته العزة والغيرة بسماعه النصيحة وأصيب بجنونٍ ظنًّا منه أنه تعرض للإهانة، فبدلا من انتفاعه بالنصيحة يهبّ لمواجهة الناصح. فإن مصير هؤلاء جهنم، لأنهم بدلا من أن يكونوا ممتنّين لمن يطلعهم على خطئهم يستعدون لمحاربته.

يجب ألا يُفهَم من هذا أنّ كل من رأى خطأ أو عيبًا في غيره أصبح من حقّه تنبيهه على الملأ. بل ينبغي أن يكون إسداء النصيحة دوما على انفراد. كما يجب أن يختبر الناصح مكانته وكفاءته أيضا، ويفكّر فيما إذا كان يتحلى بكفاءة لإسداء النصح إلى من يريد أن يسديه إليه أم لا، وذلك حتى لا تسفر نصيحته عن نتائج معاكسة. فكما أنه لا بد من أن يتحلى المخطئ بالأناة والصبر، ويتلقى كلام الناصح بكل حلم وتؤدة، كذلك لا بد أن يأخذ الناصح حذره في إسداء النصح حتى لا يُهين مَن يريد نصحه ويذلّه بذكر أخطائه أمام الجميع.

الطريق العاشر

الأمر العاشر هو ألا يقنط أبدًا بل يجب أن يتوكل على الله. ومن الناس من يصيبهم القنوط بعد بذلهم الجهود الكبيرة، فيحجمون عن العمل وهم على وشك قطف ثمار جهودهم.

قصة رجل صالح

حكي عن أحد الصلحاء أنه كان يقوم الليل ويدعو لبعض الأمور. وصادف يومًا أن جاء أحد مريديه لزيارته وأقام عنده ثلاثة أو أربعة أيام. فلما قام مرشده ليلا للصلاة أفاق هو أيضا وظل مشغولا بالعبادة. فلما فرغ مرشده من صلاته سمع صوتًا يقول: لن يحظى دعاؤك بالقبول مهما تضرعت وابتهلت. وأراد الله تعالى أن يُسمع المريد هذا الإلهام، فتعجب في قلبه إلا أنه سكت بدافع الخجل والاحترام. وفي الليلة التالية نهض الولي كعادته من نومه وأخذ يردد الدعاء نفسه إلى أنه تلقى الإلهام نفسه بأن دعاءَه لن يستجاب. وسمعه المريد للمرة الثانية ولكنه سكت. وفي الليلة الثالثة أيضا استيقظ الولي وأخذ يتعبد ويدعو فتلقى الإلهام نفسه، وسمعه المريد أيضا إلا أنه لم يستطع السكوت هذه المرة، فقال للولي: لم يحدث هذا مرة أو مرتين بل هذا هو اليوم الثالث على التوالي إذ تتلقى الإلهام نفسه بأن دعاءك لن يستجاب ومع ذلك لا تنفك ترددده. فقال الولي: إنك تعبتَ في ليلتين أو ثلاثة؟ أما أنا فأردد هذا الدعاء منذ عشرين عاما، وأتلقى في كل مرة الجواب نفسه، ولكنني مستمر في دعائي دون أي ملل. لأن الدعاء عبادة وعلى المرء أن لا ينقطع عن عبادة معبوده تعالى. إن عملي هو أن أسأل الله، وإن عمل الله تعالى أن يقبل أو يرفض. فأنا أقوم بعملي، والله يعمل عمله، فلماذا تتدخل في

أمرنا. فسكت المريد. فلما نهض الولي في اليوم التالي للدعاء والعبادة تلقى إلهامًا من الله تعالى أنه قد استجاب له جميع ما دعا به خلال عشرين عامًا لأنه نجح في الامتحان والابتلاء. فقال لمريده: لو عملت بنصيحتك لخسرت خسارة فادحة، ولضيعت مجاهدة عشرين سنة، ولكنني كنت متوكلا على الله تعالى فأكرمني بقربه في نهاية المطاف.

لا بد من الصبر على الدعاء

لاحظوا الآن لو قبل هذا الولي نصيحة مريده وترك الدعاء حين لم يبق من استجابة أدعيته إلا وقت يسير لكان ذلك خطيرا جدًّا ومدمّرًا لجميع جهوده. فعلى المؤمن ألا يخضع لليأس والقنوط أبدًا، وأن يسعى دائما للمضي قدمًا، ولا يجلس عاطلا مكتوف اليدين إذا واجه فشلا. يمكنه أن يفكر في أسباب فشله، وإذ علم عن هذه الأسباب فعليه أن يحاول تداركها، ولكن ينبغي ألا ييأس من فضل الله تعالى ورحمته أبدًا. يقول البعض: لا تسفر أعمالنا عن نتائج تذكر لذلك نكفّ عنها. فأقول لهم: عليكم أن تقوموا بواجبكم حتى ولو لم يأت بنتائج مرضية، فلو فعلتم ذلك لصرتم من الفائزين في نهاية المطاف. إنما يحرز المؤمنون النجاح بالتوكل على الله لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٤) أي أن الناس أخذوا يخيفون المسلمين قائلين: لم

تتحقق نبوءات انتصاركم بل اجتمع العالم ضدكم الآن فاخشَوهم. ولكن قولهم هذا زاد المسلمين إيمانًا لأنهم قد تلقوا هذه النبوءة أيضا بأن الأعداء سيشنون ضدهم هجمة شديدة ويحاولون القضاء عليهم، ولكنهم مع ذلك سيحرزون النجاح والانتصار. فردّوا على هؤلاء المخوِّفين ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فليعادِنا العالم كله الآن، لأننا لا نبالي بهذه الأمور ما دمنا قد توكلنا على الله تعالى. ومؤدّى هذه الآية أنه كلما اشتدت منافسة المؤمن وجب عليه أن يتحلى بالثبات والقوة بالعزيمة نفسها. اعلموا أن المصاب بمرض جسدي لا يترك تلقي العلاج لأن وصفة أحد الأطباء لم تفده. بل يسعى لمعالجة مرضه حتى يموت أو يتلقى علاجًا ناجعًا يُشفى به. فهذا ما يجب على المرضى الروحانيين. فإن كان مرضه خطيرًا ومستعصيًا وجب عليه بذل السعي المضاعف للشفاء منه. فلو نجح في سعيه لأحرز كل شيء، أما لو مات خلال سعيه لتغاضى الله تعالى عنه بعض الشيء لقاء سعيه هذا. ولكنه لو انقطع عن سعيه ومات فلا يرجى له إلا العقاب. فعلى الإنسان أن لا يتأخر ولا يتلكأ في بذل السعي ولا ينقطع عنه يائسًا. لقد لوحظ في المدارس والكليات أن سبب نجاح بعض الطلاب هو ثباتهم ومثابرتهم. لقد سمعت عن أحد الهندوس أنه رسب في الامتحان سبع مرات متتالية، ولما تقدم للامتحان للمرة الأخيرة كان ابنه أيضا يتقدم للامتحان نفسه. ولكنه لم يخجل من هذا

الأمر بل تقدّم للامتحان ونجح أخيرًا. فلا داعي للقلق ولا ينبغي للإنسان أن يحطّ من شأن نفسه. لا أحثكم على العُجب بل على الثبات والمثابرة، فيجب ألا تقولوا إنه لا يسعنا القيام بعمل كذا، بل يجب أن تقولوا إن الله تعالى قد أعطانا نحن أيضا جميع القوى اللازمة للعمل. يقول الله تعالى عن عظمة المؤمن: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ (الأحزاب: ٢٤) أي من المؤمنين مَن أدى واجبه، ومنهم من ينتظر فرصةً يغتنمها لأداء واجبه. ورد في إحدى الروايات أن أحد الصحابة[1] قال لو كنت في بدر لقاتلت في سبيل الله قتالا شديدًا. إن مثل هذه الكلمات تعبّر عن الرغبة القلبية ولا يمكن أن تسمى بالعُجب بحال من الأحوال، بل مَثَلها كمثل الدخان الذي يتصاعد من النار المخبوءة. وهذه كانت حالة الصحابي المذكور الذي اشترك لاحقًا في غزوة أحد، ولما أُشيع فيها أن النبي ﷺ قد استشهد، سمع ذلك عمر رضي الله عنه واضطرب فجلس، فجاءه هذا الصحابي المذكور -وكان مع عمر صحابي آخر يجلس مطأطئًا رأسه- فسأله: ما يقعدكم؟ قال: قُتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جال بسيفه حتى قُتل، فلما عُثر عليه وُجد به سبعون جرحًا. (سيرة ابن هشام، غزوة أحد، ما فعله أنس بن النضر)

[1] أنس بن النضر رضي الله عنه. (راجع: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد)

الفرق بين العُجْب وعدم اليأس

باختصار، إنها لنقطة هامة جدًّا ألا يسيء الإنسان الظن بنفسه، فكما أن سوء الظن بالآخرين عيب كذلك من العيب إساءة الظن بنفسه، بل هو إثم. فينبغي أن يعزم أحد في قلبه متوكلا على الله تعالى أنه لن يدع الشيطان يغلبه. فالفرق بين عدم خضوع الإنسان لليأس والقنوط أو عدم إساءة الظن بالنفس وبين العُجب والتكبر هو أن الأول يتعلق بأحداث المستقبل دومًا والأخير يتعلق بأعمال الماضي؛ يفقد المغرور والمتكبر السيطرة على نفسه سريعًا أثناء العمل، ولكنه يتفاخر عندما ينتهي العمل. أما المتوكل على الله تعالى الذي لا يسيء الظن بنفسه فيظل متشبثًا بأمله حتى نهاية العمل، ثم بعد انتهاء ذلك العمل فإنه لا يظل يفتخر به في كل نادٍ.

الطريق الحادي عشر

الأمر الحادي عشر لتزكية النفس هو أن البعض يجعلون من عند أنفسهم بعض ذنوبهم كبيرةً وبعضها الآخر صغيرةً، وبالتالي لا يحتاطون كثيرا من تجنبها، في حين يتبين من القرآن الكريم أنه لا يمكن أن يطلق على الإثم المرتكب تسمية صغير أو كبير، بل هي مصطلحات اخترعها الناس من عند أنفسهم، ولا ذكر لها في القرآن الكريم بالمعنى المذكور، إنما الإثم الصغير وفق هدي القرآن الكريم هو ما يخطر ببال الإنسان ولا

يرتكبه، أما الإثم المرتكَب فهو كبير دومًا. لذلك ينبغي على المرء ألا يحسب أي إثم من الآثام صغيرًا، لأنه بذلك سوف يهمله ولا يهتم باجتنابه.

يُحكى أن شخصًا كان يظن أنه من كبار الشجعان، فذهب إلى وَشّامٍ وطلب منه رسم صورة أسد على ساعده. ولما وخزه الوشّام بالإبرة تألم، وصرخ قائلا: ماذا تصنع؟ قال أرسم الأذن اليمنى للأسد. قال: ألا يستطيع الأسد أن يعيش بدونها؟ قال نعم. قال فلا ترسم الأذن، وارسم عضوًا آخر. فلما وخزه مرة أخرى، صرخ وقال: ماذا تصنع الآن؟ قال أرسم الأذن اليسرى للأسد. فقال: ألا يمكن أن يعدَّ الأسدُ أسدًا بدونها؟ قال: نعم، يعدّ أسدًا بدونها أيضا. قال دَعْك من هذه الأذن أيضًا وارسم عضوًا آخر له. فما زال الرجل يمنعه حتى وضع الوشّام الإبرة جانبًا وقال: اذهب إلى بيتك لأنه لم يبق الآن للأسد عضو أرسمه على ساعدك. هذا هو حال أعمال بعض الناس فإنهم يتركون جميع أعمالهم لحسبانها صغيرة غير ذات أهمية، وفي النهاية لا يبقى لديهم شيء منها. ينبغي ألا يفعلوا ذلك، لأنه – كما قلت سابقا– ليس هناك ما يسمى بالصغير في هذا الموضوع، ثم يجب أن يتذكروا أن كل عمل يكون دافعًا لعمل آخر. فكما أن سيئة تجرّ مرتكبها نحو سيئة أخرى، كذلك فإن كل حسنة توجب حسنة أخرى وتبعث عليها، لذلك ينبغي عدم اعتبار أية حسنة أو سيئة صغيرةً.

عن أنس ﷺ أنه قال لمن أسلم بعد وفاة النبي ﷺ: إِنَّكُمْ لتَعمَلونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ. (البخاري، كتاب الرقاق)

كذلك ثبت من الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبْرَيْنِ فقَالَ عن صاحبيهما إنهما يُعذَّبَانِ وما يُعذَّبَانِ في كبير أي أنَّهمَا يُعذَّبَانِ في إثمين صغيرين غير أنهما يعدّان كبيرين. فوصفهما بالصغيرين نظرًا إلى سهولة اجتنابهما، وعدّهما كبيرَين لأنهما تسبّبا في دخول صاحبيهما جهنم. أَمَّا أحدهما فلم يكن يحذر من رذاذ البول، وأما الآخر فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ. (الترمذي، أبواب الطهارة)[1]

فليس هناك ما يسمى بالشيء الصغير، بل الصغير والكبير أمر نسبي، إذ إنّ ما يقدر عليه الإنسان ويستطيع فعله فإنه صغير بالنسبة إليه مهما كان كبيرًا وصعبًا في نظر الآخرين. أما ما لا يقدر على فعله فهو كبير بالنسبة له مهما كان صغيرًا وسهلا عند غيره. مثلا: رجل يصلي ويصوم

---

[1] نص الرواية المشار إليها هو: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ. (الترمذي، أبواب الطهارة)

- وفي رواية البخاري: وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ.
- وفي رواية النسائي: لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ، وفي رواية أخرى له: لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ. (المترجم)

ويؤدي الزكاة ويحج البيت ولكنه لا يجتنب السباب والشتم، وإن قلنا له لماذا لا يجتنبه أجاب بأنه لا يستطيع. فما دام لا يقدر على اجتنابه فقد صار هذا العمل كبيرًا بالنسبة له، وعليه فإذا كان أحد يرتكب سيئة ولا يستطيع الإقلاع عنها فإنها كبيرة بالنسبة له، كذلك إذا كان لا يستطيع كسب حسنة من الحسنات فإنها تصبح كبيرة عليه. لقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أن الإنسان لا يثاب على الأعمال التي يقوم بها بطبعه، بل يترتب الثواب على فعل تخالفه فيه نفسُه فلا يخضع لها مع القدرة على فعله. مثلا لو قال من ليست فيه قدرة جنسية أنه لا أزني، فلا يُعدُّ ذلك حسنة له، وإنما لو ترك النميمة لكان قد أتى بالحسنة. كذلك من الحسنة بعينها الإقلاع عن سيئة يقع فيها صاحبها لأنها بالنسبة له من الكبائر.

مدارج المعرفة الإلهية

لقد ذكرتُ باختصار كيف تتولد المعرفة الإلهية. لو عملتم بهذه الأمور لانتفعتم بها انتفاعًا كبيرًا بإذن الله تعالى. وأذكر الآن في هذه العجالة علامتين أو ثلاث للمعرفة الإلهية لأنه لم يتبق وقتٌ لذكر أكثر منها. علامات المعرفة الإلهية على نوعين؛ نوع يتعلق بالعلامات الخارجية، والآخر بالداخلية. ومن العلامات الخارجية ما ورد في الحديث الشريف من أن العبد يَتَقَرَّبُ إِلَى الله تعالى بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يصيرَ الله يدَه ورجلَه ولسانه. (انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق) ويتضح من

هذا الحديث أنه لا ينال المعرفة الإلهية من يقتصر على أداء الفروض بل لا بد من النوافل أيضا. وبعد الالتزام بالنوافل ينال الإنسان المعرفة الإلهية بحيث يصبح الله تعالى يده ورجله وأنفه وأذنه ولسانه. ويعني ذلك أن جميع أعماله تصبح لله تعالى، أي كما أنه لا بد أن تتم أعمال الله تعالى ولا يقدر أحد على منعها، كذلك فإن أعمال هذا الإنسان أيضا لا بد أن تتم، فإذا بطش بأحد ما خلّى له مهربًا، وإذا سمع لأحد أخذ له الموافقة على طلبه، وإذا توجه لأحد انصلح؛ وإذا تكلم تكلّم بالحق وكان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥)، ويكون بطشه شديدًا، فإن بطش بأحدٍ ما استطاع الإفلات من بطشه. فإن نيل المعرفة الإلهية يعني أن الإنسان يتصبّغ بصفات الله تعالى وتظهر بعض أفعال الله تعالى بواسطته. يوجهه الله تعالى ويمكّنه من الأعمال التي يرى فيها الناس مظهرًا لتجلي قدرات الله تعالى. ويكون هذا التجلي أوضح وأجلى، حتى إن بعض البسطاء يحسبونه إلهًا.

وهناك تغييرات باطنية تحدث في الإنسان قبل بلوغه هذه الحال، وهي:

الأولى: إنه يتلقى علم الحسنات والسيئات. فقد لا تبدو له بعض الأعمال سيئةً في الظاهر ولكنه عندما يُقدم على العمل بها يفطن فورًا أنها سيئة فيتوقف عن فعلها. وقد يوشك على ترك بعض الأعمال ظنًّا منه

أنها سيئة ولكنه يُعطى عنها علمًا أنها حسنة. فالدرجة الأولى للمعرفة الإلهية هي أن الإنسان يعطى علمًا عن الحسنة والسيئة من علم الله تعالى، وهو أمر لا يحظى به الآخرون.

اعلموا أن النبي ﷺ أيضا كان يصلي الصلوات التي يصليها الآخرون وكان يصوم كما يصوم الآخرون، ولكن أكان الآخرون أيضا حائزين على تلك الدرجة التي نالها النبي ﷺ؟ كلا. ذلك لأن النبي ﷺ كان يرى الحسنات إلى حدود أبعد من التي كان الآخرون يرونها، ثم كان ﷺ يعمل بها أيضا، وكذلك كان يرى السيئات إلى حدود أبعد من التي كان الآخرون يرونها، ثم كان ﷺ يجتنبها أيضا، ولأجل ذلك فقد وصل إلى الدرجة التي لم يصل إليها غيره. إذن فهناك حسنات وسيئات أخرى وراء التي تبدو ظاهرة للعيان إلا أنها لا يمكن أن تُذكر وتوضَّح ملامحُها، بل لا يفهم حقيقتها إلا من وهبه الله تعالى ملكةً خاصة لها. ومن أعطي هذه الملَكة ثم عمل بحسبها ازدادت ونمت وازدهرت يومًا بعد يوم. هذه هي الدرجة الصغيرة للمعرفة الإلهية.

الثانية: الدرجة الثانية للمعرفة الإلهية هي أنه يتم إظهار السيئات المخفية على الإنسان. فهناك سيئة مستورة ولا تُرى ما لم يُكشَف الستار عنها، ولكن هناك سيئة لا تُعلم حقيقتُها وإنْ كانت مكشوفة وباديةً للأعين. مثلا لو قيل عن لحم الخنـــزير إنه لحم الماعز لما علم أحد بحقيقته

رأي العين، أو قد يكون لحم الماعز حقيقةً دون أن يكون أكله جائزًا. ولكن الحائز على المعرفة الإلهية يُخبَر عن مثل هذه الأمور، فعندما يقدم إليه شيء من هذه الأشياء يُلقى في قلبه نوع خاص من الجذب إليه أو الكراهية له، فيفهم منه حقيقته.

يحكى أن أحد الأولياء جلس مع مجموعة من الناس لتناول الطعام إلا أنه وقف دون أن يأكل شيئًا وغادر المجلس، فترك الناس الآخرون أيضا الطعام وسألوه عن سبب مغادرته، فقال: شعرت برغبة عارمة في أكل هذا الطعام فأدركت أنه لا بد أن يكون به ضرر، لذلك نهضت وجئت إلى هنا. وهكذا يُحفَظ أولئك الذين تكون نفوسهم تحت سيطرتهم ظاهرًا دون أن تكون قد استسلمت لإرادتهم استسلامًا كاملا، فهم يفهمون من رغبة نفوسهم في شيء أنه سيئ، ولكن الذين هم أعلى درجة من هؤلاء فإن نفوسهم أيضا تكون قد أسلمت وأصبحت صالحة لدرجة أنهم يعرفون حقيقة السيئة كيفما تمثلت أمامهم، ويقولون فورًا:

بهر رنگے کہ خواہی جامہ مے پوش من انداز قدت رامی شناسم

أي: لن تخفى عني مهما تنكّرت في ملابس مختلفة الألوان، لأنني سأعرفك من قامتك في كل الأحوال.

هذه هي الدرجة الأخيرة من العرفان التي يتمكن فيها الإنسان من معرفة حقيقة الحسنة والسيئة فيرى الحسنة حسنةً والسيئة سيئةً مهما

كانت خافية ومستورة. لا يُسأل الحائزون على هذه الدرجة: من أنتم؟ بل يراهم العالم تلقائيًا ويتعرف عليهم.

وفقكم الله تعالى للعمل بهذه الأمور وأغدق عليكم بنعمة عرفانه، آمين.

❁❁❁❁❁